Al Wasl University Journal - Issue (70) - June 2025
ISSN 2791-2949 (Online)

An Interpretive Study of the Verses that Include the Almighty's Saying (And Who Is More Unjust)

Dr. Samiah Bint Atiyatullah Almaabdi
College of Da`wa (Islamic Call) and Fundamentals of Religion, Umm Al-Qura University- Saudi Arabia

https: //doi.org/10.47798/awuj.2025.i70.06

Abstract

This research dealt with the study of the verses that included the saying (and who is more unjust) an analytical interpretive study. It aims to determine the meanings of the verses and reveal who deserves to be described in the Book of God Almighty as the more unjust; In order to avoid falling into what those described did, it also aims to deduce the benefits contained in those verses, relying on the analytical and deductive approach.

One of the most important results of this research is that this method was repeated in the Holy Qur'an in fifteen places, all of which were in the Meccan surahs, except for two places among them, and that the matters whose perpetrator was described as saying that no one is more unjust than him are mostly related to the principles of religion and belief, so the verses included warnings and threats that show the bad fate of those described.

Keywords: unjust - interpretation - contradiction

Received: 03-10-2023

Accepted: 21-08-2024

Published: 01-06-2025

Corresponding Author:

hmdanlafee@hotmail.com

دراسة تفسيرية تحليلية للآيات المشتملة على قوله تعالى (وَمَن أَظلَمُ)

د. سامية بنت عطية الله المعبدي
كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية

ملخص

تناول هذا البحث دراسة الآيات التي اشتملت على قوله (وَمَن أَظلَمُ) دراسة تفسيرية تحليلية، وهو يهدف إلى الوقوف على معاني الآيات، والكشف عمن استحق أن يوصف في كتاب الله تعالى بأنه الأظلم؛ ترهيبًا من الوقوع فيما وقع فيه أولئك الموصوفون، كما يهدف إلى استنباط الفوائد التي تضمنتها تلكم الآيات، معتمدة في ذلك على المنهج التحليلي والاستنباطي.

ومن أهم نتائج هذا البحث: أن هذا الأسلوب تكرر في القرآن الكريم في خمسة عشر موضعًا، كانت كلها في السور المكية عدا موضعين منها، وأن الأمور التي وصف فاعلها بأنه لا أحد أظلم منه يتعلق غالبها بأصول الدين والاعتقاد، لذا تضمنت الآيات الوعيد والتهديد بما يبين سوء مصير أولئك الموصوفين.

كلمات مفتاحية: أظلم-تفسير- تحليل-تعارض

© 2022 AWU Publishers/Alwasl University. All Rights Reserved.

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، ومن اقتفى أثره وبعد: فقد جاء القرآن الكريم محذرًا من الظلم، ناهيًا عنه، محرمًا إياه؛ إذ إنه سبب كل شر وفساد، لا يفشو في أمةٍ إلا آذن الله برحيلها، ولا يشيع في بلدة إلا وبدأت أسباب زوالها، به تفسد الديار وتخرب الأوطان وتُدمر الأمصار، وبه ينزل غضب الواحد القهار وعذاب الملك الديّان قال الله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٥٩] ومما يُلحظ في القرآن أن الله قد ذم أقوامًا بأنه لا أحد أظلم منهم مما يدلل على شناعة ما ارتكبوا، وقبيح ما فعلوا، من هنا جاء اختياري لهذا البحث الذي وسمته بـ(دراسة تفسيرية تحليلية للآيات المشتملة على قوله تعالى (وَمَن أَظلَمُ)).

أهمية البحث وأسباب اختياره: مما يبرز أهمية هذا الموضوع تكرره في غير موضع من كتاب الله تعالى، واختلاف الموصوفين به مما يدفع إلى البحث عن أولئك الذين وصفهم الله ﷻ بقوله (وَمَن أَظلَمُ)، للوقوف على عظم جرمهم الذي استحقوا به ذلك الوصف، ترهيبًا مما فعلوا، وتوقيًا من الوقوع فيما وقعوا، إلى جانب أن البحث عن معاني الآيات والوقوف على فوائدها ولطائفها مما أمر الله تعالى به حيث قال سبحانه ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

مشكلة البحث: تبرز مشكلة البحث في إجابته عن الأسئلة التالية:

١- كم مرة ورد قوله (ومن أظلم) و (فمن أظلم) في القرآن؟

٢- ما هي موجبات الوصف بالأظلمية؟

٣- ما الفوائد التي حوتها الآيات؟

٤- كيف ندفع موهم التعارض بين الآيات المشتملة على هذا الوصف؟

أهداف البحث:

١- جمع الآيات المشتملة على قوله (ومن أظلم) أو (فمن أظلم)، ودراستها دراسة تفسيرية.

٢- العلم بمن استحق أن يوصف في كتاب الله تعالى بأنه الأظلم، والكشف عن عظيم جرمهم.

٣- الوقوف على ما حوته الآيات القرآنية من فوائد.

٤- دفع ما يتوهم من تعارض بين هذه الآيات.

حدود البحث: كل آية اشتملت على قوله (ومن أظلم) أو (فمن أظلم).

منهج البحث: استخدمت في هذا البحث المنهج التحليلي، وذلك عند دراسة الآيات دراسة تفسيرية وتحليل معانيها، كذا المنهج الاستنباطي حال استنباط فوائدها.

الدراسات السابقة:

- الظلم في ضوء القرآن الكريم، للباحثة نورة بن حسن، وهو بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراة، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية بجامعة باتنة، تخصص الكتاب والسنة، عام ٢٠٠٨-٢٠٠٩م. وقد تناول البحث موضوع الظلم مبينًا أنواعه ودوافعه، كاشفًا عن آثاره، وطرق الوقاية منه، وقد تقاطع هذا البحث في مطلبه الثالث الذي جاء بعنوان الظلم الأعظم مع هذه الدراسة في بيان معاني الآيات، وفارقته الدراسة ببيان صلة الآيات بما قبلها، والوقوف على ما دلت عليه الآيات من فوائد.

- أسلوب (ومن أظلم) في القرآن دراسة نظرية تطبيقية، للباحثة نور محمد مكاوي، بحث محكم نشر في المجلة العلمية لكلية الدعوة وأصول الدين بالزقازيق، عام ٢٠١٧م، وقد عني البحث ببيان هذا الأسلوب القرآني من خلال الآيات التي ورد فيها، وتطرق لتفسير الآيات إلا أنه لم يفصل ما حوته الآيات من الفوائد ولم يقف على ما فيها من الهدايات التي ذكرتها هذه الدراسة.

- آيات (ومن أظلم) في القرآن الكريم، للباحث محمد حازم العبيدي، بحث محكم نشر في مجلة أبحاث- كلية التربية، ٢٠٢١م، وقد تناول البحث موضوع الظلم بشكل عام من حيث تعريفه وأقسامه ومرادفاته، ولم يفسر الباحث الآيات موضوع الدراسة.

- أظلم الناس في القرآن الكريم، للباحث محمد رزيق الرحيلي، بحث محكم نشر في مجلة كلية دار العلوم، ٢٠١٩م، وقد جعل الباحث أفعال الموصوفين بقوله (ومن أظلم) عناوين رئيسة لمباحثه ثم تكلم عنها بشكل عام دون الخوض في تفسير الآيات.

خطة البحث: اقتضت طبيعة البحث أن يُقسّم إلى مقدمة، وتمهيد، وعشرة مباحث.

المقدمة: وتشتمل على أهمية الموضوع، ومشكلته، وأهدافه، وحدوده، ومنهج البحث، وخطته. التمهيد: وفيه التعريف بالظلم. المبحث الأول: السعي في تخريب المساجد، ومنع ذكر اسم الله فيها. المبحث الثاني: كتمان الشهادة. المبحث الثالث: افتراء الكذب على الله تعالى. المبحث الرابع: افتراء الكذب على الله، والتكذيب بآياته. المبحث الخامس: افتراء الكذب على الله، وادعاء النبوة. المبحث الثامن: افتراء الكذب على الله، والتكذيب بالحق وقائله. المبحث التاسع:

الإعراض عن التذكرة بآيات الله. المبحث العاشر: إشكال ورده.

تلته الخاتمة وفيها أهم نتائج البحث وتوصياته، ثم قائمة بالمصادر.

تمهيد: التعريف بالظلم «الظاء واللام والميم أصلان صحيحان، أحدهما خلاف الضياء والنور، والثاني: وضع الشيء غير موضعه تعديا.»[١] والعلاقة بينهما ظاهرة فالظلم ظلمة كما قال ﷺ (الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ)[٢]، وكما أن الظلام يمنع الرؤية، فكذا الظلم يمنع صاحبه من رؤية الحق وأداء الحقوق إلى أهلها، ووضع الأمور في مواضعها. قال ابن دريد: «الظلم مصدر ظلمتُه أظلِمه ظَلْماً، وأصل الظلم وضعك الشيء في غير موضعه ثم كثر ذلك حتى سمي كل عَسْف ظلما»[٣]، ويطلق لفظ الظلم على مجاوزة الحد بالنقصان أو الزيادة ومنه قوله تعالى ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣] أي لم تنقص منه شيئا من هنا عرفه الراغب بأنه «وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه»[٤]، ومن معاني الظلم أيضًا الميل عن القصد أو العدول عن الحق إلى الباطل قال الجرجاني في تعريفه للظلم: «وضع الشيء في غير موضعه، وفي الشريعة: عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور، وقيل: هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد»[٥].

١- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٥م، (٣/ ٤٦٨).

٢- رواه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والقصد، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، (٣/ ١٢٩)، ح(٢٤٤٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والآداب والصلة، باب تحريم الظلم، (٤/ ١٩٩٦)، ح (٢٥٧٩).

٣- محمد بن الحسن بن دريد، جمهرة اللغة، المحقق: رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، (٢/ ٩٣٤).

٤- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان الداودي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ، ص٥٣٧.

٥- الجرجاني علي بن محمد، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص١٤٤.

المبحث الأول: السعي في تخريب المساجد، ومنع ذكر اسم الله فيها

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤].

المطلب الأول: وجه اتصال الآية بما قبلها

حوت الآيات السابقة دعوى أهل الكتاب أنهم هم وحدهم أهل الجنة والأحق بها؛ فردّ الله عليهم قولهم وأنكر دعواهم بهذه الآية، وهذا القول مبني على أن المراد بمساجد الله كل المساجد، ومنع ذكر اسمه فيها ما قامت به النصارى من تخريب لبيت المقدس، يقول الرازي: «فأما من حملها على النصارى وخراب بيت المقدس قال تتصل بما قبلها من حيث إن النصارى ادعوا أنهم من أهل الجنة فقط، فقيل لهم كيف تكونون كذلك مع أن معاملتكم في تخريب المساجد والسعي في خرابها هكذا»[١]، ومن المفسرين من حمل الآية على المسجد الحرام خاصة، وفسر المنع بصد الرسول ﷺ عن المسجد الحرام عام الحديبية، ومنهم من حملها على المسجد الحرام وغيره من مساجد مكة، وعليه جعلوها متصلة بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٣] يقول الرازي: «وأما من حمله على المسجد الحرام وسائر المساجد قال: جرى ذكر مشركي العرب في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ وقيل: جرى ذكر جميع الكفار وذمهم، فمرة وجه الذم إلى اليهود والنصارى ومرة إلى المشركين»[٢]، قال أبو حيان: «ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه جرى ذكر النصارى في قوله (وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ)، وجرى ذكر المشركين في قوله ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ

١- محمد بن عمر التميمي الرازي، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م، (٤/ ١٠).

٢- المصدر نفسه.

ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ ﴾، وفي أيٍ نزلت منهم كان ذلك مناسباً لذكرها تلي ما قبلها»[١]

المطلب الثاني: سبب نزول الآية

للمفسرين في سبب نزول هذه الآية أقوال، أولها: أنها نزلت إخبارا عن الروم الذين خربوا بيت المقدس[٢]. ثانيها: أنها نزلت في بختنصر حيث خرّب بيت المقدس، وأعانه على ذلك النصارى من أهل الروم[٣]، قال قتادة: حملهم بغض اليهود على معاونة بختنصَّر[٤] وهذا ما رجحه الطبري قي تفسيره[٥]، في حين عارضه الجصاص بقوله: ما رُوي في خبر قتادة يشبه أن يكون غلطًا من راويه لأنه لا خلاف بين أهل العلم بأخبار الأولين إن عهد بختنصّر كان قبل مولد المسيح عليه السلام بدهر طويل، والنصارى إنما كانوا بعد المسيح، وإليه ينتمون، فكيف يكونون مع بختنصّر في تخريب بيت المقدس، ومع ذلك فإن النصارى تعتقد من تعظيم بيت المقدس مثل اعتقاد اليهود فكيف أعانوا على تخريبه مع اعتقادهم فيه؟![٦].

١- محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م (١/ ٥٢٧).

٢- روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في طَطُوس الرومي وأصحابه من النصارى، ذلك أنهم غزوا بني إسرائيل، فقتلوا مقاتلتهم، وسبوا ذراريهم، وحرفوا التوراة، وخربوا بيت المقدس، وقذفوا فيه الجيف. علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، أسباب نزول القرآن، المحقق: عصام الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ط٢، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م، ص٣٦.

٣- ينظر: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الدر المنثور، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، (١/ ٢٦٤)؛ أحمد بن إبراهيم الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: عدد من الباحثين، دار التفسير، جدة - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م، (٤/ ٣٨)؛ علي بن أحمد الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص٣٦.

٤- رواه عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تفسير القرآن، تحقيق د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٠ه، (١/ ٢٨٧) ومن طريقه محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، (٢/ ٥٢٠)، ابن أبي حاتم عبد الرحمن بن محمد الرازي، المحقق: أسعد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٩ هـ، (١/ ٢١٠)، ورواه محمد بن جرير الطبري، في جامع البيان في تأويل القرآن، (٢/ ٥٢٠) من غير طريق عبد الرزاق.

٥- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (٢/ ٥٢١).

٦- ينظر: أحمد بن علي الجصاص، أحكام القرآن، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، (١/ ٧٥).

ثالثها: أنها نزلت في المشركين لما صدوا النبي ﷺ عام الحديبية عن البيت، قاله أبو مسلم واستشهد بقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [من الفتح: ٢٥] وقوله ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [من الأنفال: ٣٤] وحمل قوله ﴿إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ بما يعلي الله من دينه، ويظهر من كلمته.[١] وقد ضعف الطبري هذا القول من جهة أنّ المشركين لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام، بل كانوا يفخرون بعمارته في الجاهلية، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله ﷺ وأصحابه من الصلاة فيه، وبأنه لم يجرِ لهم ذكر.[٢] وأجيب عن ذلك بأن قوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ مَنْع المسلمين أن يقيموا بها أمر الدين فهو خراب معنوي[٣]، وإلى هذا مال ابن كثير في تفسيره[٤]، يشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [من الفتح: ٢٥] رابعها: أنها نزلت في مشركي مكة الذين منعوا الرسول ﷺ من الدعوة إلى الله بمكة وألجأوه إلى الهجرة، فصاروا مانعين له ولأصحابه أن يذكروا الله في المسجد الحرام.[٥]

خامسها: وهو قول ابن عباس، ورجحه ابن العربي والرازي[٦] أنها نزلت في صلاة النّبي ﷺ قِبَل بيت المقدس، ثم عاد فصلّى إلى الكعبة، فاعترضت عليه

١- ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (٤/ ٩).
٢- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (٢/ ٥٢٢).
٣- محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م، (١/ ٤٣).
٤- إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م، (١/ ٣٨٨)، وانتصر أحمد شاكر لترجيح الطبري ورد كلام ابن كثير في تفسيره فينظر: ما قال (٢/ ٥٢٢-٥٢٣).
٥- ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (١/ ٣٨٨)، وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن قريشًا منعوا النّبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله تعالى: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ) الآية. ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، (١/ ٢١٠)، وأورده السيوطي، الدر المنثور، (١/ ٢٦٤) وعزاه لابن إسحاق وابن أبي حاتم. وإسناده ضعيف.
٦- ينظر: ابن العربي محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، (د.ت)، (١/ ٢٨٠)، الرازي، مفاتيح الغيب، (٤/ ٩-١٠).

اليهود، فأنزلها الله تعالى له كرامة، وعليهم حجة.

وهذا القول برأيي أقوى الأقوال وأرجحها من حيث إنه لا معارض له من جهة، ومن جهة أخرى اتساقه مع الآيات التي قبلها وبعدها، فالآيات التي قبل قوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ جاءت إخبارا عن أهل الكتاب وذمًا لأفعالهم، والتي بعدها نبهت بذمهم والخبر عن افترائهم على ربهم، فكان الأليق بالسياق أن يكون قوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ فيهم عملاً بالقاعدة الترجيحية التي تنص على أن إدخال الكلام في معاني ما قبله وما بعده أولى من الخروج به عنهما، إلا بدليل يجب التسليم له، قال الرازي: «وهو أقرب إلى رعاية النظم...ذلك لأن الله تعالى لم يذكر في الآيات السابقة على هذه الآية إلا قبائح أفعال اليهود والنصارى، وذكر أيضاً بعدها قبائح أفعالهم فكيف يليق بهذه الآية الواحدة أن يكون المراد منها قبائح أفعال المشركين في صدهم الرسول ﷺ عن المسجد الحرام»[1]، وقال القاسمي: «الآية في ذم اليهود، تبعا للسابق واللاحق، وما جنوه بكفرهم على بيت المقدس من خرابه وتسليط عدوّهم عليهم حتى خربه ودمر مدينتهم، وقتل وسبى منهم وأسرهم... كل ذلك كان برفضهم كتاب الله والعمل بشريعته.»[2] ونزول الآية لسبب خاص لا يمنع أن يكون حكمها عاما ينطبق على كل من اتصف بالصفات المذكورة فيها؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وسواء أكان نزولها في بيت المقدس أم المسجد الحرام، فإن حكمها يشمل كل مسجد قال أبو حيان: «وظاهر الآية العموم في كل مانع، وفي كل مسجد، والعموم وإن كان سبب نزوله خاصا فالعبرة به لا بخصوص السبب»[3]، وقال القرطبي: «وأراد بالمساجد هنا بيت المقدس ومحاريبه، وقيل الكعبة، وجمعت

١- الرازي، مفاتيح الغيب، (٤/ ١٠).
٢- محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي، محاسن التأويل، المحقق: محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ، (١/ ٣٧٩).
٣- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، (١/ ٥٢٦).

لأنها قبلة المساجد أو للتعظيم. وقيل المراد من منع من كل مسجد إلى يوم القيامة، وهو الصحيح، لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع، فتخصيصها ببعض المساجد وبعض الأشخاص ضعيف».[1]

المطلب الثالث: تفسير الآية

مما تجدر الإشارة إليه ابتداءً أن هذه الآية لم تأتِ لبيان الشرط وجزاءه، بل جاءت مخبرة عن وقوع الأمر، مبينة جزاء فاعليه، يقول الرازي: «أجمع المفسرون على أنه ليس المراد من هذه الآية مجرد بيان الشرط والجزاء... بل المراد بيان أن منهم من منع عمارة المساجد وسعى في خرابها، ثم إن الله تعالى جازاهم بما ذكر في الآية»[2]، هذا وقد صُدّرت الآية بالاستفهام المتضمن معنى النفي والاستبعاد أن يكون أحد أظلم وأشد اعتداء وجرأة على الله ومخالفة لأمره، ممن منع المساجد التي هي أماكن العبادة لله ومواضع السجود له أن يعبد الله فيها، وبذل جهده وسعى في خرابها حسيا بهدمها وتخريبها، أو تقذيرها، أو إغلاقها. أو معنويا بمنع ذِكر الله في المساجد من إقام الصلاة، وتلاوة القرآن، ونحو ذلك، ومنع المؤمنين منها وصدهم عن دخولها. قال الشوكاني: «هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم متناهٍ، وأنه بمنزلةٍ لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم، أي لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله»[3]. وقال ابن عاشور: «وقد عُدل عن صَوْغ الحكم عليهم بصيغة الإِخبار إلى صوغه في صورة الاستفهام للإيماء إلى أن السامع لا يسعه إلاّ الجوابَ بأنهم أظلم».[4]

١- محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، المحقق: هشام البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م، (٢ / ٧٧).

٢- الرازي، مفاتيح الغيب، (٤/ ١٠).

٣- محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٤ هـ، (١ / ١٣١).

٤- محمد الطاهر بن محمد بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م، (٢٤ / ٥).

ولكون الجزاء في الإسلام من جنس العمل جازاهم الله، بأن منعهم دخولها شرعًا وقدرًا، إلا خائفين أن تضرب أعناقهم أو أخيفوا بفرض الجزية عليهم فهم يؤدونها، قال ابن كثير: «هذا خبر معناه الطلب أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية»(١)، وقال النسفي: «ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلا عن أن يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا المؤمنين عنها»(٢). ثم بين سبحانه ما أعد لهم من العقوبة فقال ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ أي للمانعين فإن مما ثبت في الشرع أن لا يُمَكَّنَ مشرك من دخول الحرم(٣)، لهم في الدنيا خزي الذل والهوان والقتل والسبي والنفي، فمن جعل الآية في النصارى قال: الخزي قتل الحربي وجزية الذمي، وقيل: الفتوح الكائنة في الإسلام كعمورية(٤) وغيرها، ومن جعلها في قريش جعل الخزي غلبتهم في الفتح وقتلهم والعذاب في الآخرة لمن مات منهم كافرا.(٥) قال الرازي: «واعلم أن كل ذلك محتمل فإن الخزي لا يكون إلا ما يجري مجرى العقوبة من الهوان والإذلال فكل ما هذه صفته يدخل تحته، وذلك ردع من الله تعالى عن ثباتهم على الكفر؛ لأن الخزي الحاضر يصرف عن التمسك بما يوجبه ويقتضيه»(٦)، ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي النار و «قد وصفه الله تعالى بما جرى مجرى النهاية في المبالغة؛ لأن الذين قدّم ذكرهم

١- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (١ / ٣٨٩).

٢- عبد الله بن أحمد النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، المحقق: يوسف بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م، (١ / ١٢٢).

٣- ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٨/ ١٠٤).

٤- عَمّورية: بفتح أوله، وتشديد ثانيه، بلد في بلاد الروم، وهي التي فتحها المعتصم بسبب أسر المرأة العلوية، في قصة طويلة، وكانت من أعظم فتوح الإسلام. ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، (٤/ ١٥٨).

٥- عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، (١/ ١٩٩)؛ وينظر علي بن محمد الماوردي، النكت والعيون، المحقق: السيد بن عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (د.ت)، (١ / ١٧٤).

٦- الرازي، مفاتيح الغيب، (٤/ ١١).

وصفهم بأعظم الظلم، فبين أنهم يستحقون العقاب العظيم»[1]. وقد اختلف المفسرون في معنى قوله ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ فمنهم من ذهب إلى أنه خبر بمعنى الطلب، وهو ما رجحه ابن كثير[2]، واستبعده أبو حيان بقوله «ومعنى حملها على الأمر ودلالتها على الأمر لنا بالإخافة لهم بعيدةٌ جداً»[3]. ومنهم من عدّه بشارة للمسلمين بظهورهم على المسجد الحرام بحيث يخافهم المشركون، قال ابن كثير: «وقيل إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد إلا خائفًا يخاف أن يؤخذ فيعاقب، أو يقتل إن لم يسلم وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام»[4]، وقال السعدي: «وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها الباري قبل وقوعها، فوقعت كما أخبر»[5]. في حين ذهب بعض المفسرين إلى أنه وصف لما ينبغي أن يكون، والمعنى «ما كان ينبغي لهم أن يدخلوها إلا بخشية وخضوع، فضلا عن الاجتراء على تخريبها أو تعطيلها»[6]، لولا ظلم الكفرة وعتوهم. ورجًحه النسفي.[7] وقيل معناه أنه يحرم عليهم دخول المسجد الحرام، إلاّ في أمر يتضمن الخوف نحو أن يدخلوا للمُخَاصمة والمُحَاكمة والمُحَاجّة.[8] و حمل بعض المفسرين الآية على ظاهرها، وأنها فيمن صدر عنه ذلك من المسلمين، فهم الذين يحرم عليهم دخوله إلاَّ خائفين، قال أبو حيان: «والظاهر أن المعنى أولئك ما ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا وهم خائفون من الله وجلون من عقابه، فكيف لهم أن يلتبسوا

١- المصدر نفسه.
٢- ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (١ / ٣٨٩).
٣- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، (١/ ٥٢٩).
٤- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (١ / ٣٨٩).
٥- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المحقق: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م، ص٦٣.
٦- ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١/ ١٨٧).
٧- ينظر: النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (١ / ١٢٢).
٨- الرازي، مفاتيح الغيب، (٤/ ١٢)؛ أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، (١/ ٥٢٨).

بمنعها من ذكر الله والسعي في تخريبها، إذ هي ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ [النور: ٣٦] وما هذه سبيله ينبغي أن يعظم بذكر الله فيه، ويُسعى في عمارته، ولا يدخله الإنسان إلا وجلاً خائفاً، إذ هو بيت الله أمر بالمثول فيه بين يديه للعبادة... ففي ذلك تقبيح عظيم على ما وقع منه، إذ كان ينبغي أن يقع ضده، وهو التبجيل والتعظيم ولما لم يقع هذا المعنى الذي ذكرناه للمفسرين، اختلفوا في الآية على تلك الأقوال التي ذكرناها عنهم. ولو أريد ما ذكروه، لكان اللفظ أولئك ما يدخلونها إلا خائفين، ولم يأت بلفظ ما كان لهم الدالة على نفي الابتغاء»[1]، ووافقه الرازي فيما ذهب إليه حيث قال: «ظاهر الكلام أن الذين آمنوا وسعوا في تخريب المسجد هم الذين يحرم عليهم دخوله إلا خائفين»[2].

والآية الكريمة إذ تحذر من منع عمّار المساجد أن يعمروها؛ فإنها تدلّ بمفهوم المخالفة على فضل عمارة المساجد، سواء أكانت عمارة حسية أم معنوية، قال السعدي: «وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيماناً ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية»[3] وهو ما دلّ عليه قوله ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴾ [النور: ٣٦] بل قد جعل سبحانه عمارتها دليل إيمان قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨] قال القرطبي: «قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ دليل على أن الشهادة لعمار المساجد بالإيمان صحيحة؛ لأن الله سبحانه ربطه بها وأخبر عنه بملازمتها»[4]، وعمارة

١- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، (١/ ٥٢٨).
٢- الرازي، مفاتيح الغيب، (٤/ ١١).
٣- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٦٣.
٤- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٨/ ٩٠).

المساجد من أجلّ أعمال البِرّ، وأجزلها أجرًا فمن عمَّر المساجد العمارة الحسيّة أو المعنوية له في الدنيا أحسن الجزاء وفي الآخرة أحسن العاقبة قال النبي ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم: «وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِد»[١]، و في الحديث (مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا وَلَوْ كَمَفْحَص قَطَاة لِبَيْضِهَا[٢] بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا في الْجَنَّة)[٣]، وفي الصحيحين من حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ ﷺ: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَرَاحَ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ نُزُلَهُ مِنَ الجَنَّة كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ»[٤]، ومن حديثه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ به الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ به الدَّرَجَات؟» قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ الله قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوء عَلَى الْمَكَارِه، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِد، وَانْتِظَارُ الصَّلَاة بَعْدَ الصَّلَاة، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»[٥] وعن بُرَيْدَةُ ﷺ قال: قَالَ ﷺ: «بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَم إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٦]، وغير ذلك من الأحاديث الدالة على فضل عمارة المسجد لاسيما عمارته بالذكر والصلاة، وحلق العلم وغيرها.

١- رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، (١ / ١٣٣)، ح [٦٦٠]، وكتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، (٢ / ١١١)، ح [١٤٢٣]، وكتاب الحدود، باب فضل من ترك الفواحش، (٨ / ١٦٣)، ح [٦٨٠٦]، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، (٢ / ٧١٥)، ح [١٠٣١].

٢- المَفْحَص: الحفرة التي تحفرها القَطاة في الأرض لتَبيض وترقد فيها، والقطاة: نوع من اليمام. ينظر: ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، (١ / ٥٤٥).

٣- أخرجه ابن حبان في صحيحه، (٤ / ٤٨٩)، ح [١٦١٠]، وابن ماجة في سننه، باب تشييد المساجد، (١ / ٤٧٥)، برقم (٧٣٨)، وأحمد في المسند، (١ / ٢٤١)، ح (٢١٥٧)، وقال محققوه: «صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف جابر الجعفي»، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦١٢٨).

٤- رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب فضل مَن غدا إلى المسجد ومن راح، (١ / ١٣٣)، ح [٦٦٢]، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من غدا إلى المسجد أو راح، (١ / ٤٦٣)، ح [٦٦٩].

٥- رواه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، (١ / ٢١٩)، ح [٢٥١].

٦- رواه الترمذي في سننه، باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في الجماعة، (١ / ٢٩٩)، ح [٢٢٣]، وأبو داود في سننه، باب ما جاء في المشي إلى الصلاة في الظُّلَم، (١ / ٤٢١)، ح [٥٦١]، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم [٢٨٢٣]، وأخرج الحاكم في المستدرك على الصحيحين، (١ / ٣٣١)، مثله من حديث سهل بن سعد، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. قال الذهبي: على شرطهما.

المطلب الرابع: فوائد الآية

١- لفظ المساجد يشمل كل موضع عُبِد الله فيه، «وهذه الآية تتناول كل من منع من مسجد إلى يوم القيامة أو خرب مدينة إسلام؛ لأنها مساجد وإن لم تكن موقوفة، إذ الأرض كلها مسجد لهذه الأمة».(١)

٢- مجيء الاستفهام بمعنى النفي أبلغ من النفي المجرد.

٣- إضافة المساجد إلى الله ﷻ فيه دليل على شرفها وعلو مكانتها؛ فهي مواطن الذكر والعبادة، وهي شعيرة من شعائر الدين ينبغي تعظيمها وتطهيرها وصيانتها من كل دنس قولي أو فعلي، حسي أو معنوي. قال ابن تيمية رحمه الله: «وكانت مواضع الأئمة، ومجامع الأمة هي المساجد؛ فإن النبي ﷺ أسس مسجده المبارك على التقوى، ففيه الصلاة، والقراءة، والذكر، وتعليم العلم، والخطب، وفيه السياسة، وعقد الألوية والرايات، وتأمير الأمراء، وتعريف العرفاء، وفيه يجتمع المسلمون عنده لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم»(٢)

٤- تخريب المساجد إما أن يكون حسيًا أو معنويًا، قال الإمام القرطبي: «خراب المساجد قد يكون حقيقيًا كتخريب بختنصر والنصارى بيت المقدس... ويكون مجازًا كمنع المشركين المسلمين حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها»(٣)، وكلاهما مترتب عليه الوعيد المذكور في الآية، بل إنهم موعودون بالعقوبة العاجلة في الدنيا، مع ما يدخره الله لهم من

١- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (١/ ١٩٩).
٢- أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجموع الفتاوى، المحقق: عبد الرحمن بن محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م، (٣٥/ ٣٩).
٣- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٢/ ٧٧).

العذاب العظيم في الآخرة.

٥- مجيء هذه الآية عقب دعاوى أهل الكتاب فيه ردّ لدعواهم، وتكذيب لهم؛ إذ إنه جعل أظلم الظالمين من يعطل مساجد الله فلا يذكر فيها اسمه، بل يسعى في خرابها، وهو عين ما يفعله أهل الكتاب إذ إنهم يخربون المساجد ولا يتوجهون لله فيها بالعبادة الخالصة؛ فإذًا دعاواهم باطلة. إلا أن سياق الآية لم يأت بنقض دعاوى أهل الكتاب بشكل مباشر، بل قرر حقائق مطلقة وجد من يدعي أو لم يوجد.

٦- استدل العلماء بالآية الكريمة، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد، يقول الرازي: «فصونه -أي المسجد- عما يوجب تحقيره واجب، وتمكين الكفار من الدخول فيه تعريض للبيت للتحقير لأنهم لفساد اعتقادهم فيه ربما استخفوا به وأقدموا على تلويثه وتنجيسه»[1].

٧- تشير الآية إلى عظم أمر الصلاة؛ ببيانها أنه لا أحد أظلم من الذين منعوا ذِكْرَ الله في المساجد من إقام الصلاة، وتلاوة القرآن، ونحو ذلك، قال ابن العربي: «فائدة هذه الآية تعظيم أمر الصّلاة فإنّها لمّا كانت أفضل الأعمال وأعظمها أجراً كان منعها أعظم إثماً، وإِخراب المساجد تعطيل لها وقطع بالمسلمِين في إظهار شعائرهم وتأليف كلمتهم»[2].

٨- يستدل بمفهوم الآية على أن العلو والتمكين في الأرض إنما يكون للمؤمنين؛ إذ هم حماة الدين وعمّار المساجد، وأن غيرهم من أهل الكفر لا ينبغي أن يكون لهم السلطان لكونهم غير مؤتمنين على حرمة أماكن العبادة.

٩- يؤخذ من قوله: (أَن يُذكَرَ فِيهَا اَسمُهُ) أن المشروع في ذكر الله -تبارك

١- الرازي، مفاتيح الغيب، (٤/ ١٧).
٢- ابن العربي، أحكام القرآن، (١/ ٥٠-٥١).

وتعالى- أن يكون باللسان باسمه ﷻ قال تعالى ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [سورة الأعلى: ١] أي سبحه ذاكرًا اسمه، لا كما يفعل البعض بذكره بالضمير هو. قال ابن تيمية: «فأما الاسم المفرد مظهرا مثل «الله، الله» أو مضمراً مثل «هو، هو» فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنَّة ولا هو مأثور أيضًا عن أحد مِن سلف الأمة ولا عن أعيان الأمة المقتدى بهم وإنما لهج به قوم من ضلال المتأخرين»[١].

١٠- يستدل بمفهوم الآية على أن عمّار المساجد هم المؤمنون حقاً، بل قد حصر سبحانه الإيمان فيهم بقوله ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، يقول الرازي: «فإذا كان الساعي في تخريبه في أعظم درجات الفسق وجب أن يكون الساعي في عمارته في أعظم درجات الإيمان»[٢].

١١- ضُمّن تعالى قوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾، أمر المسلمين بجهاد الكافرين وقتالهم حتى يسلموا أو تكسر شوكتهم فيذلوا ويهونوا.[٣]

١٢- مما يشكل على هذه الآية أن الله سبحانه جعل هذا الفعل أعظم الظلم وأشده، في حين أن الشرك بالله تعالى يعدّ ظلمًا، كما قال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [من لقمان: ١٣] وهو أعظم من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه فكيف نجمع بين الآيتين؟ يقول الرازي جوابا لذلك: «أقصى ما في الباب أنه عام دخله التخصيص فلا يقدح فيه»[٤].

١- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (١٠/ ٥٥٦).
٢- الرازي، مفاتيح الغيب، (٤/ ١٢).
٣- أبو بكر جابر بن موسى الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، ط٥، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، (١/ ١٠).
٤- الرازي، مفاتيح الغيب، (٤/ ١١).

المبحث الثاني: كتمان الشهادة

﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

المطلب الأول: صلة الآية بما قبلها

للآية تعلق ظاهر بما قبلها من جهة أن فيها إبطالًا لما ادّعاه أهل الكتاب من أن الأنبياء الذين كانوا قبلهم كانوا على دينهم؛ ولكونهم على الدين الحق الموافق لدين الأنبياء فهم أهل الجنة والأحق بها، فأبطل سبحانه دعواهم بأمور من جملتها ما ورد في هذه الآية يقول البقاعي: «ولما كان قد بقي من مباهتاتهم أنهم يدَّعون أن أسلافهم كانوا على دينهم فتكون دعواهم الاختصاص بالجنة صحيحة أبطلها سبحانه بقوله (أم) أي أرجعوا عن قولهم ﴿كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ [البقرة: ١٣٥] لما ثبت من مخالفة ذلك لملة إبراهيم وآله»(١).

المطلب الثاني: سبب نزول الآية

لم يرد في سبب نزول الآية حديث صحيح، أو قول مسند معتبر بل قد ذُكِر فيه قول لم يثبت(٢)، يقول الألوسي: ما روي في سبب النزول ليس مذكورًا في شيء من كتب الحديث ولا التفاسير المعتبرة كما نص على ذلك الإمام السيوطي وكفى به حجةً في هذا الشأن(٣).

١- إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، (١ / ٢٥٧).

٢- روي في سبب نزول هذه الآيات أن اليهود والنصارى قالوا: يجب أن يكون الناس لنا تبعًا في الدين؛ لأن الأنبياء منا والشريعة نزلت علينا ولم يعهد في العرب أنبياء ولا شرائع، فردّ الله عليهم بهذه الآية. المرجع نفسه، نفس الجزء والصفحة.

٣- محمود بن عبد الله الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـ، (١ / ٣٩٦).

المطلب الثالث: تفسير الآية

ورد في قوله (أم يقولون) قراءتان متواترتان[١] (تقولون) بالتاء و(يقولون) بالياء، وعلى قراءة التاء تكون (أم) متصلة بما قبلها، أي أنها تكون معادلة للهمزة في قوله: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ [من البقرة: ١٣٩] والمعنى: أيّ هذين الأمرين تفعلون أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم، أم تقولون إن إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط[٢] كانوا على دينكم؟ أي الأمرين واقع منكم؟ وفائدة هذا الأسلوب -مع أن العلم حاصل بثبوت الأمرين- الإشارة إلى أن أحدهما كاف في الذم فكيف إذا اجتمعا.[٣] وعلى القراءة الأخرى: (أم يقولون) تكون أم منقطعة «مقدرة ببل، والهمزة دالة على الإضراب والانتقال من التوبيخ على المحاجة إلى التوبيخ على الافتراء على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[٤]، وعلى كلا القراءتين فالآية واردة على سبيل الإنكار، فهي تُنكر عليهم قولهم وتبطل زعمهم بأن أولئك الأنبياء كانوا هودًا أو نصارى.

فإن أدعوا ذلك فليقال -في معرض الرد عليهم وتفنيد قولهم وبيان سفههم وجهلهم- ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ أي أأنتم أعلم بالمرضيّ عند الله، أم الله أعلم بما يرضيه وما يتقبله؟ والاستفهام «تقرير على فساد دعواهم إذ لا جواب لمفطور إلا أن الله تعالى أعلم»[٥] فقد أخبر سبحانه وتعالى في كتابه أن أولئك الرسل لم يكونوا على دين

١- قرأ حفص وابن عامر وحمزة والكسائي: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ بالتاء، والباقون بالياء. ينظر: ابن الجزري محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، ابن الجزري محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، المحقق: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، (٢/ ٢٢٣)، أحمد بن موسى البغدادي، السبعة في القراءات، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ١٤٠٠هـ، ص١٧١.

٢- السَّبْط الجماعة الذين يرجعون إلى أب واحد، والأسباط هم أَوْلَاد يعقوب عليه السلام اثْنَا عشر سبطا كل سبط قَبيلَة. محمد بن الحسن بن دريد، جمهرة اللغة، (١ / ٣٣٦).

٣- ينظر: النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (١ / ٣٥١)، الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (١ / ٣٩٧).

٤- الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (١ / ٣٩٧).

٥- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (١ / ٢١٧).

اليهودية ولا النصرانية بل كانوا حنفاء لله موحدين له قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة آل عمران: ٦٧]، وكيف يكونون هودًا أو نصارى وما حدثت تلك الأديان إلا بعدهم؟ يقول الطبري «إن اليهود والنصارى، إن ادَّعوا أنَّ إبراهيم ومن سمّي معه في هذه الآية، كانوا هودًا أو نصارى، تبيّن لأهل الشرك الذين هم نصراؤهم، كذبُهم وادّعاؤهم على أنبياء الله الباطل؛ لأن اليهودية والنصرانية حدثت بعدهم، وإن هم نَفوْا عنهم اليهودية والنصرانية، قيل لهم فهلموا إلى ما كانوا عليه من الدين، فإنا وأنتم مقرُّون جميعًا بأنهم كانوا على حق، ونحن مختلفون فيما خالف الدّين الذي كانوا عليه.»[١]

قوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ استفهام متضمن معنى النفي أي لا أحد أظلم من المتصفين بتلك الصفة. وللمفسرين في المراد بالشهادة قولان: الأول هي ما أخبرهم به سبحانه في كتبهم من أن الأنبياء عليهم السلام على الحنيفية لا على ما ادّعوا هم، قال الطبري: «الشهادةُ التي عندهم من الله في أمرهم، مأ أنزل الله إليهم في التوراة والإنجيل، وأمرُهم فيها بالاستنان بسُنَّتهم واتباع ملتهم، وأنهم كانوا حُنفاء مسلمين. وهي الشهادةُ التي عندهم من الله التي كتموها، حين دعاهم نبي الله ﷺ إلى الإسلام فقالوا له: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، وقالوا له ولأصحابه: كونوا هُودًا أوْ نصارى تَهتدوا، فأنزل الله فيهم هذه الآيات، في تكذيبهم، وكتمانهم الحق، وافترائهم على أنبياء الله الباطل والزُّور».[٢]

الثاني: أنها ما عندهم من الأمر بتصديق الرسول ﷺ واتِّباعه، يقول ابن تيمية: «كان عند أهل الكتاب من البيّنات الدالّة على نبوّة محمد ﷺ وصحّة ما جاء به

١- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (٣/ ١٢٥).
٢- المصدر السابق، (٣/ ١٢٧).

أمور متعددة؛ لبشارات كتبهم وغير ذلك؛ فكانوا يكتمونه»[١]. ورجح الطبري القول الأول، لمناسبته سياق الآية «لأن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، في إثر قصة من سمَّى الله من أنبيائه، وأمامَ قصته لهم، فأَوْلى بالذي هو بَين ذلك أن يكون من قَصصهم دون غَيره.»[٢]، وهو ما رجحه ابن عطية، والرازي، والقرطبي[٣]، وهذه الشهادة متحصلة عندهم من الله، استودعهم الله تعالى إياها ولذلك قال: مِنَ اللَّهِ[٤]؛ مما يستوجب آداءها على وجهها، ويزجر عن كتمانها، وقيل المعنى «ومن أظلم ممن عنده شهادة فلم يقمها عند الله بل كتمها وأخفاها»[٥].

قوله ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعيد شديد، وإعلام بأن الله لن يترك عقوبتهم على ظلمهم وسيجازيهم بأعمالهم؛ لذا أمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيه أن يقول لهؤلاء المحاجّين له «وما الله بغافل عما تعملون، من كتمانكم الحق فيما ألزَمكم في كتابه بيانَه للناس... ولا هُو سَاهٍ عن عقابكم على فعلكم ذلك، بل هو مُحْصٍ عليكم حتى يُجازيكم به من الجزاء ما أنتم له أهلٌ في عاجل الدنيا وآجل الآخرة. فجازاهم عاجلًا في الدنيا، بقتل بعضهم، وإجلائه عن وطنه وداره، وهو مُجازيهم في الآخرة العذابَ المهين.»[٦]، يقول السمرقندي: «هذا القول وعيد للظالم وتعزية للمظلوم»[٧]، ولما كان الفعل المضارع يفيد الحال والاستقبال جاء التعبير به في قوله (تعملون) «إشعاراً بتماديهم بعد هذا كله على سوء أعمالهم وتحذيراً

١- ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، النبوات، تحقيق: عبد العزيز الطويان، أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، (٢/ ٦٤١).
٢- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (٣/ ١٢٦).
٣- ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (١/ ٢١٧)، الرازي، مفاتيح الغيب، (٤/ ٨١)؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٢/ ١٤٧).
٤- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (١/ ٢١٧).
٥- الرازي، مفاتيح الغيب، (٤/ ٨١).
٦- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (٣/ ١٢٧).
٧- نصر بن محمد السمرقندي، بحر العلوم، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، (د.ت)، (١/ ١٢٥).

من مثل ذلك». [1]

المطلب الرابع: فوائد الآية

١- في الآية تعريض بأهل الكتاب وذم لهم؛ لكتمانهم العلم الذي بينه الله لهم في كتبهم، وأخذ عليهم الميثاق أن يبينوه، وهو «ما عندهم من الخبر والشهادة لإبراهيم وأهل بيته، وكتموا إسلامهم وما عندهم من الأخبار بمثل ما أخبر به محمد ﷺ وبصفته وغير ذلك» [2] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

٢- ما ادعاه أهل الكتاب في حق الأنبياء السابقين هو قول بلا بينة، فأكذبهم الله وأنكر عليهم قولهم، وقرر في نفوسهم كذبهم يقول الرازي: «ادعوا ذلك من غير برهان فوبخهم الله تعالى على الكلام في معرض الاستفهام على سبيل الانكار والغرض منه الزجر والتوبيخ، وأن يقرر الله في نفوسهم أنهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين فيما يقولون» [3]، وأقام سبحانه في هذه الآية والتي قبلها ثلاث حجج تدحض دعواهم، وهي قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ وقوله: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

٣- لم تنص الآية على جواب قوله ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ لظهوره، وعلمه لكل أحد، يقول السعدي: «وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه من وضوحه لم يحتج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق،

١- البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (١ / ٢٥٨).
٢- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (١٤ / ١٨٦).
٣- الرازي، مفاتيح الغيب، (٤ / ٨١).

ونحو ذلك؛ لانجلائه لكل أحد»[١].

٤- جاءت الآية ذامّة لمن كتم الشهادة ولم يبينها؛ لأن الشهادة مبنية على علم الشاهد وصدقه وبيانه، فمتى أخلّ بذلك لم يحصل مقصود الشهادة ولم تتحقق الغاية منها، وترتب على كتمانها ضياع الحق، يقول ابن تيمية: «إن المخلوق إذا كانت عنده شهادة لم يبينها، بل كتمها لم ينتفع أحد بها، ولم تقم بها حجة ولهذا ذم سبحانه من كتم العلم الذي أنزله وما فيه من الشهادة»[٢].

٥- عُلّقت الأظلمية بمطلق الكتمان؛ «للإيماء إلى أن مرتبة مَنْ يردها ويشهد بخلافها في الظلم خارجة عن دائرة البيان»[٣].

٦- دلت الآية على أن كلام الله ﷻ الذي أنزله، وأخبر فيه بما أخبر شهادة منه سبحانه؛[٤] وقد شهد الله تعالى لأنبيائه في التوراة والإنجيل والقرآن أنهم كانوا مسلمين مُبرئين عن اليهودية والنصرانية.

٧- استحق أهل الكتاب أن يكونوا الأظلم لكتمانهم الشهادة، وليست أي شهادة فهي شهادة عندهم من الله فكيف يكتمونها مع تقرير الله لهم، واستخبارهم عنها، ونهيه لهم عن كتمانها وما يقاربه بقوله ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٤٢]، ولم يقتصروا على ذلك بل بدّلوها وادعوا الباطل، يقول السعدي: «كان ظلمهم أعظم الظلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ فهي شهادة عندهم، مودعة من الله، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها وأظهروا ضدها، جمعوا بين

١- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٦٩.
٢- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (١٤/ ١٨٦).
٣- أبو السعود العمادي محمد بن محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)، (١ / ١٧٠)، الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (١ / ٣٩٧).
٤- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (١٥ / ٦٦).

كتم الحق وعدم النطق به، وإظهار الباطل والدعوة إليه»[1].

٨- «ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يُجازى عليها يفيد الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب»[2]، ففي الآية وعيد وإعلام أنه سبحانه وتعالى لا يترك أمرهم سدى، وأن أعمالهم تحصّل ويجازون عليها. وذلك في قوله ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ومن استشعر مراقبة الله له، وأنه سبحانه مطلع عليه، عالم بسره وجهره، لا تخفى عليه خافية، وأنه تعالى محص عليه أعماله، مجازيه عليها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، كان دائم الخوف والحذر، يرجو رحمة الله ويخشى عذابه.

المبحث الثالث: افتراء الكذب على الله تعالى، وفيه ثلاث آيات

الآية الأولى: قوله تعالى ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤].

المطلب الأول: صلة الآية بما قبلها قال المراغي:

«بعد أن ذكر سبحانه أن الأنعام إما حمولة وإما فرشًا، فصلها وقسمها ثمانية أزواج، فإن الحمولة إما إبل وإما بقر، والفرش إما ضأن وإما معز، وكل من الأقسام الأربعة إما ذكر وإما أنثى، وكل هذا لإيضاح المحالّ التي تقوّلوها على الله تعالى بالتحريم والتحليل ثم تبكيتهم بإظهار كذبهم وافترائهم في كل محل من

١- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٦٩.
٢- المصدر السابق، نفس الصفحة.

هذه المحال بتوجيه الإنكار إليها مفصلة»[١].

المطلب الثاني: سبب نزول الآية

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حين أتاه عوف بن مالك، فقال له: أَحَلَّلْتَ ما حرمه أباؤنا، يعني من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام[٢]، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال: ﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ فسكت عوف لظهور الحجة عليه.[٣]

المطلب الثالث: تفسير الآية

امتن الله سبحانه على عباده بإحلال الطيبات، ومنها بهيمة الأنعام فأحل الله ﷻ الأكل منها والانتفاع بها، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، وفي هذه الآية إبطال لما حرمه المشركون منها، وتفنيدًا لزعمهم أنهم حرموها بأمر الله، قال القرطبي: «قال العلماء: الآية في أمر البحيرة وما ذُكِر معها»[٤].

قوله ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾ «تقسيم على الكفار حتى يتبين كذبهم

١- أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، مصر، (د.ت)، (٨/ ٥٤).

٢- الْبَحِيرةُ ناقة كانت إذا نُتجت خمسة أبطن وكان آخرها ذكراً، نحروا أذنها - أي شقوها - وامتنعوا من ركوبَها وذبحها، ولا تطرد عن ماء ولا تمنع من مرعى، وإذا لقيها المُعيى لم يركبها. والسائبة كان الرجل إذا نذر لقدوم من سفر أو بُرء من علَّة أو ما أشبه ذلك قال ناقتي هذه سائبة، فكانت كالبحيرة في أنه لا ينتفع بها وأنْ لا تجلى عن ماء ولا تمنع من مرعى. وأما الوَصِيلَة ففي الغنم، كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم وإذا ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم. وأمَّا الحامي فالذكر من الإبل، كانت العرب إذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبْطن، حُمي ظهره فلا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى. الزجاَج، إبراهيم بن السري، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، (٢/ ٢١٣).

٣- الماوردي، النكت والعيون، (٢/ ١٨١).

٤- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٧/ ١١٤).

على الله، أي لا بد أن يكون حرّم الذكرين فيلزمكم تحريم جميع الذكور أو الأنثيين فيلزمكم تحريم جميع الإناث، أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين فيلزمكم تحريم الجميع وأنتم لم تلتزموا شيئًا مما يوجبه هذا التقسيم»[١] فدل على انتقاض علتهم وفساد قولهم، وعلى أن التحريم لم يقع وأن ما قالوه افتراءً عليه جَلَّ جَلَالُهُ. قوله ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في نسبة ذلك التحريم إلى الله، «فأخبروني عن الله بعلم لا بافتراء ولا بتخَرُّص، وأنتم لا علم لكم بذلك إذ لم يأتكم بذلك وحي من الله تعالى، فلا يمكن منكمٍ تنبئة بذلك. وفصل بهذه الجملة المعترضة بين المتعاطفين على سبيل التقريع لهم والتوبيخ حيث لم يستندوا في تحريمهم إلَّا إلى الكذب البحت والافتراء»[٢] وقوله ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ كسابقتها. ثم لما وبخهم الله بنفي العلم عنهم، انتقل إلى توبيخهم بنفي شهادتهم وقت توصية الله لهم بذلك فقال تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ وهو «استفهام على جهة التوبيخ، إذ لم يبق لهم الا ادعاء المحال والتقوّل أنهم شاهدوا وصية الله لهم بهذا»[٣]، فلما انتفى عنهم الإدراك عقلًا بنفي العلم المستند إلى خبر الوحي لكونهم مكذبين برسلهم، وحسًا بنفي مشاهدتهم ربهم فوصّاهم بهذا التحريم مشافهة بغير واسطة، تبين أن ما قالوه ما هو إلا محض افتراء على الله يقلد فيه بعضهم بعضًا. ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ الفاء في قوله (فمن) لترتيب ما بعدها على معنى ما قبلها، والمعنى لا أحد أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فنسب إليه تحريم ما لم يحرم. ﴿لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ اللام للتعليل أي لأجل إضلال عباد الله عن سبيل الله، بغير بينة منه ولا برهان، ولا عقل ولا نقل. فلم يقتصر على افتراء الكذب في حق نفسه وضلالها حتى قصد بذلك ضلال غيره، قال ابن عطية: «قال السدي: كان الذين سيبوا وبحّروا يقولون الله أمرنا

١- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٢ / ٣٥٥).
٢- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، (٤/ ٢٤٢).
٣- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٢ / ٣٥٥).

بهذا ثم بيّن تعالى سوء مقصدهم بالافتراء لأنه لو افترى أحد فرية على الله لغير معنى لكان ظلما عظيما فكيف إذا قصد بها إضلال أمة»[١]، ووصفهم بعدم العلم مع أنهم عالمون بعدم صدور ذلك التحريم عن الله؛ «إيذانا بخروجهم في الظلم عن حدود النهايات، لأنه إذا كان المفتري بغير علم يكون ظالمًا فكيف بمن يفتري الكذب وهو عالم بذلك»[٢]. والموصوفون في هذه الآية المشركون كما دل عليه السياق، وقيل الموصوف واحد وهو عمرو بن لحيّ لأنه أول من غير دين الأنبياء وسيّب السوائب. قال أبو السعود: «المراد كبراؤهم المقرون لذلك، أو عمرو بن لحي وهو المؤسس لهذا الشر، أو الكل لاشتراكهم في الافتراء عليه، ولا يقدح في أظلمية الكل كون بعضهم مخترعين له، وبعضهم مقتدين بهم».[٣] قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين لا إرادة لهم في غير الظلم والجور، والافتراء على الله. وهو وعيد لهم ولكل من سلك طريقهم فأدخل في دين الله ما ليس منه.

المطلب الرابع: فوائد الآية

١- كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلل شيئًا مما حرم الله، أو حرم شيئًا مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه، فقد افترى على الله الكذب.

٢- التحريم بغير دليل من أشنع الظلم، وهو افتراء وإضلال.

٣- إذا ثبت أنَّ من افترى على اللَّه الكذب في تحريم مباح استحقّ هذا الوعيد الشّديد، فمن افترى على اللَّه الكذب في مسائل التَّوحيد ومعرفة الذّات والصّفات والنبوات والملائكة ومباحث المعاد كان وعيده أشدّ وأشقّ.[٤]

١- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٢/ ٣٥٥).
٢- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٣/ ١٩٤)؛ وينظر الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (٤/ ٢٨٦).
٣- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٣/ ١٩٤).
٤- الرازي، مفاتيح الغيب، (١٣/ ١٧٨).

٤- إثبات المناظرة في العلم؛ لأنّ اللهَّ تعالى أمر نبيه ﷺ بأن يناظرهم، ويبين لهم فساد قولهم، وكذا إثبات القول بالنظر والقياس.(١)

٥- يستدل بالآية على أنه يبطل القول بالقياس إذا ورد عليه النص.

٦- أكدت الآية على إباحة أكل الأنعام والانتفاع بها يقول النسفي: «أن الله تعالى مَنَّ على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وبإباحتها لهم فالاعتراض بالاحتجاج على من حرمها يكون تأكيد للتحليل».(٢)

٧- ذم التقليد المحض الذي يكون من غير عقل ولا هدى.

٨- جواز الجدال والحجاج لإحقاق الحق أو إبطال الباطل.

٩- نفى الله تعالى الهداية عنهم؛ «لأنهم سدّوا باب الهداية عن أنفسهم، ولأنهم يعاونون بعضهم على الظلم ويبررونه ويرتضونه، ويشجعون عليه، ويتعاونون فيه على الإثم والعدوان».(٣)

الآية الثانية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

المطلب الأول: صلة الآية بما قبلها

لما انقضى الكلام من إبطال زعمهم أنّ النبي ﷺ افترى القرآن ونسبه إلى الله، وتعجيزهم عن برهان لما زعموه، كَرّ عليهم أن قد وضح أنهم المفترون على الله عدة أكاذيب، منها نفيهم أن يكون القرآن منزّلاً من عنده.(٤)

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (٧/ ١١٤).
٢- النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (١ / ٥٤٤).
٣- أبو زهرة، محمد بن أحمد، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، بيروت، (د.ت)، (٥ / ٢٧٠٩).
٤- محمد الطاهر بن محمد بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م، (١٢ / ٣٢).

المطلب الثاني: تفسير الآية

قوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ﴾ أي لا أحد أظلم، وأشد في كفره ممن اختلق على الله كذبا فنسب إليه ما لا يليق به من الولد، واتخذ معه آلِهَةً، وكذب ما جاء به رسله من دينه، وحرَّم وَحلَّل من غير شرعه، ثم بين وعيدهم بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي يوم القيامة «وما وصفهم بذلك لأنهم مختصون بذلك العرض، لأن العرض عام في كل العباد كَمَا قال: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الْكَهْفِ: ٤٨]، وإنما أراد به أنهم يُعرضون فيُفتضحون بأن يقول الأشهاد عند عرضهم (هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِم) فحصل لهم من الخزي والنكال ما لا مزيد عليه».[1] ويراد بالأشهاد الملائكة والنبيين الذين شهدوهم وحفظوا عليهم ما كانوا يعملون[2]، يشهد لذلك قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، وقوله ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الْأَعْرَافِ: ٦]. وقيل: الأشهاد الناس. وقيل: ما يشهد عليهم من أعضائهم[3]، وإنما اعتبر قول الأشهاد للمبالغة في إِظْهَارِ الْفَضِيحَةِ[4]، والإشارة إليهم ب (هؤلاء) حال الشهادة عليهم «إشارة إلى تحقيرهم وإصغارهم بسوء مرتكبهم»[5]، والتعبير ب (ربهم) فيه «إيماء إلى بطلان رأيهم في اتخاذهم أربابًا من دون الله»[6]. ثم لما بين ﷻ حالهم يوم القيامة بين حالهم في الدنيا وأنهم ملعونين فقال ﴿أَلَا

١- الرازي، مفاتيح الغيب، (١٧/ ١٦٣).
٢- الطبري، في جامع البيان في تأويل القرآن، (١٥/ ٢٨٢)، ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٣/ ١٥٩).
٣- أبو حيان، البحر المحيط، (٥/ ٢١٢).
٤- ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (١٧/ ١٦٣).
٥- أبو حيان، البحر المحيط، (٥/ ٢١٢).
٦- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٤/ ١٩٦).

﴿لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، وقد يكون هذا القول من تمام كلام الأشهاد عليهم يوم القيامة.[1] وتصدير الجملة ب (ألا) لتأكيد الدعاء عليهم بالطرد والإبعاد عن رحمة الله بسبب افترائهم الكذب.[2] ثم عرج على ذكر صفات أولئك الظالمين وعرف بهم بأوصافهم فقال سبحانه ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي يصرفون الناس عن الإيمان بالله وإخلاص العبادة له، ويردونهم عن اتباع الحق، وسلوك طريق الهدى الموصل إلى الجنة ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا ﴾ يطلبون بملة الإسلام زيغًا وميلًا عن الاستقامة، أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ أي يجحدون بالآخرة وينكرون البعث.[3] وكرر الضمير (هم) لتوكيد كفرهم، واختصاصهم به قال الرازي: «قال الزّجّاج: كلمة (هم) كرّرت على جهة التّوكيد لثباتهم في الكفر»[4]، وهذه الأوصاف تشير إلى أن أولئك الموصوفين قد جمعوا بين الضلال والإضلال يقول الرازي: «كما ظلموا أنفسهم بالتزام الكفر والضلال، فقد أضافوا إليه المنع من الدين الحق وإلقاء الشبهات، وتعويج الدلائل المستقيمة»[5] (أُوْلَئِكَ) الموصوفون بما تقدم ﴿لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي ليسوا بمعجزي الله أن يعاقبهم وينتقم منهم فهم تحت قبضته وقهره، وفي ملكه وسلطانه، لا يمتنعون منه إذا أرادهم ولا يفوتونه، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ فلا أنصار ينصرونهم و لا أولياء يتولونهم ويمنعون عنهم العذاب، إذ لو أراد الله أن ينزله بهم أنزله، لكنه أراد أن يؤخر عقوبتهم إلى يوم تشخص فيه الأبصار. يقول الرازي: «فجمع تعالى بين ما يرجع إليهم وبين ما يرجع إلى غيرهم وبيّن بذلك انقطاع حِيَلِهِم في الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة»[6].

١- ينظر: الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية من علم التفسير، (٢/ ٥٥٦).
٢- ينظر: أبا السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٤/ ١٩٦)، محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، (٧/ ٢٨٧).
٣- ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (١٥/ ٢٨٥)، السمرقندي، بحر العلوم، (١/ ٥٣٣).
٤- الرازي، مفاتيح الغيب، (١٧/ ٣٣٢).
٥- المرجع نفسه، (١٧/ ١٦٣).
٦- الرازي، مفاتيح الغيب، (١٧/ ١٦٤).

والجمعُ في (لهم) إما باعتبار أفراد الكفَرة كأنه قيل وما كان لأحد منهم من وليَ أو باعتبار تعدّدِ ما كانوا يدعون من دونِ الله تعالَى فيكون ذلك بياناً لحال آلهتِهم من سقوطها عن رتبة الولاية»(١). قوله ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي يزاد لهم فيه، وعلة مضاعفة عذابهم؛ أنهم جمعوا بين الضلال في أنفسهم والإضلال لغيرهم قال السمرقندي: «الرؤساء يكون لهم العذاب بكفرهم وبما أضلوا غيرهم»(٢)، وقيل ضوعف لهم العذاب لأنهم ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾، هذا وقد اختلف المفسرون في معناه على أقوال(٣)، رجح بينها الطبري بقوله «والصواب من القول في ذلك عندنا، ما قاله ابن عباس وقتادة، من أن الله وصفهم بأنهم لا يستطيعون أن يسمعوا الحقّ سماع منتفع، ولا يبصرونه إبصار مهتد، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين، عن استعمال جوارحهم في طاعة الله، وقد كانت لهم أسماعٌ وأبصارٌ»(٤). ثم حكم عليهم ﷻ بالخسران فقال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ حيث حُرِموا أعظم الثواب واستحقوا أشد العذاب، «وخسرانهم أنفسهم كونهم اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله تعالى، فخسروا في تجارتهم خسرانا لا خسران أعظم منه، ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ أي وبطل عنهم ما افتروه من عبادة الآلهة، وكونهم يعتقدون شفاعتها إذا رأوا أنها لا تشفع ولا تنفع»(٥) قوله ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ أي حقًا وصدقًا أنهم هم الأخسر في

١- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٤ / ١٩٧).
٢- السمرقندي، بحر العلوم، (٢ / ١٤٤).
٣- أولها أن معنى قوله (ما كانوا يستطيعون السمع) يعني ما كانوا في العذاب يستطيعون السمع، يعني لا يقدرون أن يسمعوا وما كانوا يبصرون في النار شيئا، ثانيها أن يكون الموصوفون بهذا آلهتهم أي ما كان هؤلاء الأولياء يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون فكيف ينفعونهم فيجلبون لهم نفعًا أو يدفعون عنهم ضرًا، الثالث: أن الآية إخبار عن حالهم في الدنيا على سبيل المبالغة يعني السمع للقرآن، ولما جاء به الرسول ﷺ. وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ أي ينظرون إليه لبغضهم فيه، الرابع: ما كانوا يستطيعون السمع لأن الله أضلهم في اللوح المحفوظ. ينظر: أبا حيان، البحر المحيط، (٥/ ٢١٣)، الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية من علم التفسير، (٢ / ٤٩١).
٤- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (١٥ / ٢٨٧).
٥- أبو حيان، البحر المحيط، (٥/ ٢١٣).

الآخرة من كل خاسر. قال السعدي: «حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشده لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة والعذاب»(١).

الآية الثالثة: قوله تعالى ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾ [الكهف: ١٥].

المطلب الأول: صلة الآية بما قبلها

لما ذكر أهل الكهف وهم الفتية الذين آمنوا بربهم ما منّ الله به عليهم من الإيمان والهدى، التفتوا إلى ما كان عليه قومهم، من عبادتهم آلهة من دون الله، فذموهم. قال أبو حيان: «ولما وحدوا الله تعالى ورفضوا ما دونه من الآلهة أخذوا في ذم قومهم وسوء فعلهم، وأنهم لا حجة لهم في عبادة غير الله»(٢).

المطلب الثاني: تفسير الآية

قوله ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ﴾ الإشارة إليهم بقصد تمييزهم بما سيُخبَر به عنهم، وللتعجيب من حالهم، وتحقير شأنهم.(٣) ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ ﴾ أي عملوها لأنها أصنام، أو صيروها آلهةً يعبدونها من دون الله، «فأشركوها معه لشبهة واهية أغواهم بها الشيطان»(٤)، وهو إخبار بمعنى الإنكار. قوله ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖ﴾ أي هلاّ أقاموا دليلًا صحيحًا، وأتوا بحجة ظاهرة بينة على صحة عبادتهم إياها واتخاذهم لها آلهة من دون الله. وهو «تحضيض بمعنى التعجيز؛ لأنه تحضيض على ما لا يمكن، وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يلتفت إلى دعواهم»(٥). فلما عجزوا عن إقامة الدليل تبين عظم ظلمهم؛ لافتعالهم الكذب

١- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٣٧٩.
٢- أبو حيان، البحر المحيط، (٦/ ١٠٢).
٣- ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، (١٥/ ٢٧٤).
٤- البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٤/ ٤٥٠).
٥- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٣/ ٥٠٠)، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٠/ ٣٦٦).

عن الله، ووضعهم العبادة في غير موضعها لذلك قالوا ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ والاستفهام متضمن معنى النفي، أي لا أحد «أشدّ اعتداءً وإشراكًا بالله، ممن اختلق، فتخرّص على الله كذبًا، وأشرك مع الله في سلطانه شريكًا يعبده دونه، ويتخذه إلهًا».[١] «وهذه المقالة يحتمل أنهم قالوها في مقامهم بين يديّ الملك تقبيحًا لما هو وقومهم عليه؛ وذلك أبلغ في التبرّي من عبادة الأصنام، وأفتّ في عضد الملك إذا اجترؤوا عليه بذم ما هو عليه، ويحتمل أنهم قالوا ذلك عند قيامهم للأمر الذي عزموا عليه»[٢].

المطلب الثالث: فوائد الآيتين

١- عظم جرم من يصد عن الإسلام بلسان حاله أو مقاله أو بسلطانه.

٢- اختيار وصفه تعالى بالربوبية في قوله ﴿كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فيه إشعار بمنته عليهم بالخلق والرزق والملك والتدبير والإحسان؛ فكان الأحرى مقابلة إحسانه بالشكر والثناء لا أن يكذبوا عليه.

٣- الإفراط في الإعراض عن الحق وبغضه، يؤدي إلى التعامي عن الصواب.

٤- إن الله يمهل ولا يهمل ففي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] [٣].

٥- بالغ القرآن في نفي السمع عنهم حيث نفى عنهم استطاعته وذلك في قوله

١- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (١٧ / ٦١٧).

٢- أبو حيان، البحر المحيط، (٦ / ١٠٢).

٣- رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾، (٦ / ٧٤)، ح [٤٦٨٦]، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، (٤ / ١٩٩٧)، ح [٢٥٨٣].

تعالى ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾، بينما اكتفي بنفي الأبصار ﴿وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾؛ «لأن قبحُ حالهم في عدم إذعانهم للقرآن الذي طريقُ تلقّيه السمعُ أشدَّ منه في عدم قَبولِهم لسائر الآيات المنوطة بالإبصار»[1].

٦- لا خسارة أعظم من خسارة النفس؛ من هنا جاء وصفهم في الآيات بأنهم (هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ)، قال أبو حيان «ولما كان خسران النفس أعظم الخسران، حُكِم عليهم بأنهم هم الزائدون في الخسران على كل خاسر، مَن سواهم من العصاة مآله إلى الراحة، وإلى انقطاع خسرانه بخلاف هؤلاء، فإن خسرانهم لا انقطاع له»[2].

٧- فساد التقليد في أصول الدين وأنه لا مقنع فيه بدون القطع، قال أبو حيان: «في قوله ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۢ بَيِّنٖ﴾ دليل على أن الديّن لا يؤخذ إلاّ بالحجة، والدعوى إذا لم يكن عليها دليل فاسدة، وهي ظلم وافتراء على الله وكذب بنسبة شركاء لله»[3].

٨- بطلان عبادة غير الله لعدم وجود دليل عقلي أو نقلي عليها.

٩- الاستفهام إذا ضُمِّن معنى النفي صار فيه زيادة فائدة، وهي أنه يكون مُشْرَباً معنى التحدي لأن النفي المجرد لا يدل على التحدي.[4]

المبحث الرابع: افتراء الكذب على الله، والتكذيب بآياته، وفيه أربع آيات

الآية الأولى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

١- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٤ / ١٩٧).
٢- أبو حيان، البحر المحيط، (٥/ ٢١٤).
٣- المرجع نفسه، (٦/ ١٠٣).
٤- محمد بن صالح العثيمين، تفسير القرآن الكريم، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٦هـ، ص٢٨.

المطلب الأول: صلة الآية بما قبلها

جاءت هذه الآية عقب قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام ٢٠] فلما حكم على أولئك المنكرين بالخسران؛ بين في هذه الآية سبب ذلك الخسران وهو أمران، أحدهما أن يفتري على الله كذبًا، والآخر تكذيبه بآيات الله، قال ابن عطية: «جاء في هذه الآية التوقيف على عظم جرم المفتري على الله بعد تقدم التنصل من ذلك قبل، فاتسق القول واطردت فصاحته»[١].

المطلب الثاني: تفسير الآية

قررت الآية الكريمة بأسلوب الاستفهام أنه لا أحد أشد ظلمًا ممن جمع بين أمرين، أحدهما: اختلاق الأكاذيب على الله ﷻ مما لا حجة لهم به، ووصفه سبحانه بما لا يليق افتراء عليه[٢]، والثاني: تكذيبهم بما ثبت بالحجة ومن ذلك «قدحهم في معجزات محمد ﷺ وطعنهم فيها، وإنكارهم كون القرآن معجزة قاهرة بينة»[٣]. «وكلمةُ (أو) للإيذان بأنَّ كلاً من الافتراء والتكذيب وحده بالغٌ غاية الإفراط في الظلم فكيف وهم قد جمعوا بينهما فأثبتوا ما نفاه الله تعالى ونفَوْا ما أثبته

١- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٣/ ١٢٦).
٢- يقول الرازي: »وهذا الافتراء يحتمل وجوها، الأول: أن كفار مكة كانوا يقولون هذه الأصنام شركاءُ الله، والله سبحانه وتعالى أمرهم بعبادتها والتقرب إليها، وكانوا أيضا يقولون الملائكة بنات الله، ثم نسبوا إلى الله تحريم البحائر والسوائب. وثانيها: أن اليهود والنصارى كانوا يقولون: حصل في التوراة والإنجيل أن هاتين الشريعتين لا يتطرق إليهما النسخ والتغيير، وأنهما لا يجيء بعدهما نبيٌّ. وثالثها: ما ذكره الله تعالى في قوله (وَإذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها) [الْأَعْرَاف: ٢٨] ورابعها: أن اليهود كانوا يقولون (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) [الْمَائِدَة: ١٨] وكانوا يقولون (لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً) [الْبَقَرَة: ٨٠]، وخامسها: أن بعض الجهال منهم كان يقول إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، وأمثال هذه الأباطيل التي كانوا ينسبونها إلى الله كثيرة، وكلها افتراء منهم على الله» الرازي، مفاتيح الغيب، (١٢/ ١٤٩- ١٥٠).
٣- المصدر نفسه.

قاتلهم الله أنَّى يُؤفكون»[1]، ثم قرر سبحانه عدم فلاحهم وأكده بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي الأمر والشأن أنهم لا يفلحون ولا يظفرون ببغيتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ وكيف يفلحون وقد جمعوا بين أمرين باطلين؟؟ قال الطبري: «لا يفلح القائلون على الله الباطل، ولا يدركون البقاءَ في الجنان، والمفترون عليه الكذب، والجاحدون بنبوة أنبيائه»[2]، وقال أبو السعود: «لا ينجُون من مكروهٍ ولا يفوزون بمطلوب وإذا كان حالُ الظالمين هذا فما ظنُّك بمن في الغايةِ القاصيةِ من الظلم»[3]. ووصفهم بالظالمين فيه بيان علة عدم فلاحهم حيث ظلموا أنفسهم بافترائهم على الله الكذب، وتكذيبهم بآياته، قال الزركشي: «صرَّح بالظلم تنبيهًا على أن علّة عدم الفلاح الظلم»[4].

الآية الثانية: قوله تعالى ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

المطلب الأول: صلة الآية

عطفت الآية على قوله ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٦] وذلك لإزالة الحجة عن كفار قريش وسائر العرب بأنه لم يكن لهم كتاب وإلا لكانوا أول المؤمنين، إذ أن ما أنزل قبل من كتب نزل بغير لسانهم، وعلى غيرهم فدحض حجتهم بما جاءهم من البينات.

١- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٣/ ١١٩).
٢- الطبري، في جامع البيان في تأويل القرآن، (١١/ ٢٩٦).
٣- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٣/ ١١٩).
٤- الزركشي، محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ، (٢/ ٤٩٣).

المطلب الثاني: تفسير الآية

قوله ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ جاءت هذه الآية لإقامة الحجة على المشركين، وقطع احتجاجهم بانحصار إنزال الكتاب على الطائفتين، وبكونهم لم ينزل عليهم كتاب بلسانهم، وأنه لو جاءهم لكانوا أول المهتدين، قال ابن عطية: «وهي في غرضها من الاحتجاج على الكفار وقطع تعلقهم في الآخرة بأن الكتب إنما أنزلت على غيرهم وأنهم غافلون عن الدراسة والنظر في الشرع وأنهم لو نزل عليهم كتاب لكانوا أسرع إلى الهدى من الناس كلهم»[١] قوله تعالى ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ جواب شرط محذوف، والمعنى «إن كنتم كما تزعمون إذا نزل عليكم كتاب تكونون أهدى من اليهود والنصارى فقد جاءكم بينة»[٢]، والبينة ههنا هي القرآن الكريم الذي أُنزل بلسان عربي مبين، جعله الله تعالى حجة واضحة على العباد، فيه الهدى من الضلال والبيان للحق، والفرقان بينه وبين الباطل، من عمل به واتبعه كان له رحمة. «وفي التعرُّض لوصفِ الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميرِهم (مِّن رَّبِّكُم) مزيدُ تأكيدٍ لإيجاب الاتباع»[٣]، ثم «لما تقرر أن البينة قد جاءت والحجة قد قامت حَسُن بعد ذلك أن يقع التقرير»[٤] فقال ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ الظلم ههنا وضع التكذيب بالآيات موضع التصديق والإيمان بها، فلا أحد أظلم ممن أعرض عن تلكم البينة بعد ما أتته، فلم يؤمن بها، ولم يصدِّق بحقيقتها بل كذب بها و صدف عنها، وهذا الوصف لهم مبالغةً في ذمهم؛ لكونهم جمعوا بين الضلال والإضلال، قال ابن كثير: «أظهر الأقوال وأقواها في معنى هذه الآية ما قاله السدي: أي لم ينتفع بما جاء به الرسول، ولا اتبع ما أرسل به، ولا ترك غيره، بل صدف عن اتباع آيات الله

١- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٢ / ٣٦٥).
٢- أبو حيان، البحر المحيط، (٤ / ٦٩٧).
٣- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٣ / ٢٠٢).
٤- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٢ / ٣٦٦).

أي صرف الناس وصدهم عن ذلك»[1]، والمراد بهم المشركون المكذبون بحجج الله وآياته[2] فلا أحد أشد ظلمًا وعدوانًا منهم. ثم أخبر سبحانه بأنه سيجزي الصادف عن آياته مطلقا -سواء أكان مكذباً أم لم يكن- سوءَ العذاب أي شديده، وهو الذي يسوء صاحبه ويشق عليه. وفي قوله ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصۡدِفُونَ﴾ علق الجزاء على الصدوف؛ لأنه ناشئ عن التكذيب،[3] والمراد أنه تعالى يعاقبهم أشد العقاب جزاء إعراضهم عن آياته في الدنيا.

الآية الثالثة: قوله تعالى ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦۤۚ أُو۟لَـٰۤىِٕكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَـٰبِۖ حَتَّىٰۤ إِذَا جَاۤءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوۤا۟ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰۤ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُوا۟ كَـٰفِرِینَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

المطلب الأول: صلة الآية بما قبلها

جاءت هذه الآية عقب قوله: ﴿يَـٰبَنِیۤ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلࣱ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَـٰتِی فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُوا۟ عَنۡهَاۤ أُو۟لَـٰۤىِٕكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦] وفيها بين سبحانه أن من الناس من يكذب بالرسل وبما جاءوا به من التشريع، وأن أولئك مصيرهم الخلود في النار، ثم أورد في الآية بعدها علة الحكم بخلودهم فيها وهو أن أولئك المكذبين هم أشد الناس ظلمًا بافترائهم على الله وتكذيبهم شرعه، يقول البقاعي: «ولما كان تكذيب الرسل تارة يكون بشرع شيء لم يشرعوه، وتارة برد ما شرعوه قولاً وفعلاً، واخبر أن المكذبين أهل النار، علل ذلك بقوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦۤۚ﴾»[4].

١- ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣/ ٣٧٠).
٢- الطبري، في جامع البيان في تأويل القرآن، (١٢/ ٢٤٣).
٣- أبو حيان، البحر المحيط، (٤/ ٢٥٨).
٤- البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٣/ ٣٠).

المطلب الثاني: تفسير الآية قوله

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أحد أشد ظلما، وأبعد عن الحق ممن تقول على الله ما لم يقُلْه؛ «بأن أوجب على عباده من العبادات ما لم يوجبه، أو حرم عليهم من الدين ما لم يحرمه، أو عزا إلى دينه أحكاما لم تنزل على رسله»[١]، أو اختلق على الله زُورًا من القول، أو نسب له ما لا يليق بجلاله من الولد والشريك، ونحو ذلك من صور الافتراء. ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ «المنزلة على رسله، سواء أكان بالقول أو بما هو أدل منه كالاستهزاء بها أو الاستكبار عن اتباعها أو بتفضيل غيرها عليها بالعمل بها»[٢] (أُوْلَئِكَ) الموصوفون بما ذُكر من الافتراءِ والتَّكذيبِ ﴿يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وللمفسرين في معنى الآية أقوال، أرجحها والذي عليه أكثرهم أن معناها يصيبهم حظهم مما كتب لهم من الرزق والعمر وغير ذلك، مع ظلمهم وافترائهم وتكذيبهم، لا يحرمون ما قدر لهم إلى انقضاء آجالهم[٣]؛ وقد علل الطبري ترجيحه هذا القول في معنى الآية بقوله «ذلك أن الله جل ثناؤه أتبع ذلك قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾، فأبان بإتباعه ذلك قولَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أن الذي ينالهم من ذلك إنما هو ما كان مقضيًّا عليهم في الدنيا أن ينالهم، لأنه قد أخبر أن ذلك ينالهم إلى وقت مجيئهم رسلَه لتقبض أرواحهم. ولو كان ذلك نصيبهم من الكتاب، أو مما قد أعدّ لهم في الآخرة، لم يكن محدودًا بأنه ينالهم إلى مجيء رسل الله لوفاتهم، لأن رسل الله لا تجيئهم للوفاة في الآخرة، وأن عذابهم في الآخرة لا آخر له ولا انقضاء، فإن الله قد قضى عليهم بالخلود فيه. فبيِّنٌ بذلك أن معناه ما اخترنا من القول فيه»[٤]، وقال الرازي: «قال بعض المحققين حمله على

١- المراغي، تفسير المراغي، (٨/ ١٤٧).
٢- المصدر نفسه.
٣- ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (١٢/ ٤١٤)، القاسمي، محاسن التأويل، (٥/ ٥٢).
٤- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (١٢/ ٤١٤).

العمر والرزق أولى؛ لأنه تعالى بيّن أنهم وإن بلغوا في الكفر ذلك المبلغ العظيم إلا أن ذلك ليس بمانع من أن ينالهم ما كُتب لهم من رزق وعمر تفضلًا من الله تعالى لكي يُصْلِحُوا ويتوبوا، وأيضا فقوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ يدل على أن مجيء الرسل للتوفِّي كالغاية لحصول ذلك النصيب متقدما على حصول الوفاة، والمتقدم على حصول الوفاة ليس إلا العمر والرزق»[١].

والمراد بالرسل في قوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ الملائكة الموكلون بقبض الأرواح، فهؤلاء الكفار ينالون ما كتبه الله لهم حتى انتهاء آجالهم، فإذا انتهت آجالهم جاءتهم رسل الله لتتوفاهم وحينئذ يسألونهم ﴿قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ أين الشركاء الذين كنتم تدعونهم لقضاء الحاجات ودفع المضرات؟ فلتدعوهم ليكونوا لكم شفعاء، ولينجوكم مما أنتم فيه من شدة وعذاب. و«فائدة السؤال وجهان: توبيخ وتبكيت لهم يزيدهم غمًّا إلى غم، ولطف بالمكلف لأنه إذا تصور ذلك صرفه عن التكذيب.»[٢] وقوله ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ «استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ من حكاية سؤال الرسل، كأنه قيل فماذا قالوا عند ذلك فقيل ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾، أي غابوا وذهبوا، فلا ندرى أين مكانهم»[٣] ولا نرجو منهم النفع ولا دفع الضر. ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ اعترفوا بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه، وأنهم عابدين لما لا يستحق العبادة؛ حيث شاهدوا ضلال تلك الأصنام وعجزها، يقول المراغي: «واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا بدعائهم إياهم وعبادتهم لهم كافرين، إذ هم قد زعموا أنهم عنده تعالى كأعوان الأمراء والسلاطين، وحاشا لله أن يتخذ الأعوان والمساعدين، فالله غنى بعلمه المحيط وقدرته الكاملة عن أن يحتاج إلى الأعوان، فإنما يحتاج إليها من يجهل أمور الناس ويعجز عن معرفة

١- الرازي، مفاتيح الغيب، (١٤/ ٥٩).
٢- القاسمي، محاسن التأويل، (٥/ ٥٢).
٣- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٣/ ٢٢٦).

أحوالهم.»[١]

الآية الرابعة: قوله تعالى ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ١٧].

المطلب الأول: صلة الآية بما قبلها

لمّا قال المشركون لرسول الله ﷺ ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ [من يونس: ١٥] دلّ قولهم على عدم إيمانهم بأن هذا القرآن من عند الله، واعتقادهم بأنه اختلاق، فلا أحد أظلم منهم إذ أنكروا القرآن وافتروا على الله الكذب يقول الرازي: «واعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر، وذلك لأنهم التمسوا منه قرآنا يذكره من عند نفسه، ونسبوه إلى أنه إنما يأتي بهذا القرآن من عند نفسه، ثم إنه أقام البرهان القاهر الظاهر على أن ذلك باطل، وأن هذا القرآن ليس إلا بوحي الله وتنزيله، فعند هذا قال: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾»[٢].

المطلب الثاني: تفسير الآية

قوله ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾ أي لا أحد أظلم من هؤلاء الموصوفين في الآية، ومعنى الافتراء في هذه الآية مغاير لمعناه في الآيتين السابقتين، فيُحمل في كل منها على ما يتناسب مع السياق الذي وردت فيه الآيات يقول أبو السعود: «والفاء لترتيب الكلام على ما سبق من بيان كون القرآن بمشيئته تعالى وأمره فلا مجال لحمل الافتراء على الافتراء باتخاذ الولد والشريك أي وإذا كان الأمر كذلك فمن افترى عليه تعالى بأن يختلق كلامًا فيقول هذا من عند الله أو يبدل بعض آياته تعالى ببعض كما تجوّزون ذلك في شأني وكذلك من كذب بآياته تعالى كما تفعلونه أظلم من كل ظالم»[٣]، هذا وقد ذهب بعض

١- المراغي، تفسير المراغي، (٨/ ١٤٨).
٢- الرازي، مفاتيح الغيب، (١٧ / ٤٨).
٣- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٤ / ١٣١).

المفسرين إلى أن هذا القول مما أُمر رسول الله ﷺ أن يقوله للمشركين، جوابًا لدعواهم أن القرآن إنما جاء به من قبل نفسه، أي «لو كنت متقولًا لكنت أظلم الناس، وفاتني الفلاح، ولم تخف عليكم حالي، ولكني جئتكم بآيات الله، فكذبتم بها، فتعين فيكم الظلم، ولا بد أن أمركم سيضمحل، ولن تنالوا الفلاح، ما دمتم كذلك»[1]، وقال بعضهم إنه من قول الله ابتداءً.

وقوله ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ وصف للمشركين الذين كذبوا بالقرآن، وأنكروا أنه من عند الله مع قيام الدليل القاطع على ذلك، يقول الرازي: «والمراد أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله لما كان في الدنيا أحد أظلم على نفسه منّي، حيث افتريته على الله، ولما أقمت الدلالة على أنه ليس الأمر كذلك، بل هو بوحي من الله تعالى وجب أن يقال إنه ليس في الدنيا أحد أجهل ولا أظلم على نفسه منكم، لأنه لما ظهر بالبرهان المذكور كونه من عند الله، فإذا أنكرتموه كنتم قد كذّبتم بآيات الله فوجب أن تكونوا أظلم الناس.»[2]

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي الكافرون المقترفون أوزارًا توجب هلاكهم في الدنيا وإهلاكهم في الآخرة، قال أبو السعود: «لا ينجُون من محذور ولا يظفَرون بمطلوب والمرادُ جنسُ المجرمين فيندرج فيه المفتري والمكذب اندراجًا أوليًا»[3].

المطلب الرابع: فوائد الآيات

١- من افترى على الله كذبًا، أو كذَّب بآياته بعد بيانها، أولئك أعظم جرمًا على الله وأكثر استشرافًا إلى عذابه.[4]

١- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٣٥٩.
٢- الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، (١٧/ ٤٨).
٣- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٤/ ١٣١).
٤- ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٣/ ١١١).

٢- دلت الآيات على أن الكاذب على الله، والمكذب بآياته في الكفر سواء، لكنه قدّم النوع الأول على الثاني؛ لشناعته وقبحه، ولما فيه من تعمّد لارتكاب الإثم، واختلاق أمورٍ ينسبها المفتري إلى الله ﷻ وهو يعلم يقينًا أنه كاذب فيها.

٣- وعيد من كذب بآيات الله، واستكبر عن سماعها.

٤- وصِف القرآن بأنه بينة وهدى، وليسا مترادفين فيكون تكرارا، بل القرآن بينة فيما يعلم سمعاً وهو هدى فيما يعلم سمعًا وعقلًا.[١]

٥- في قوله ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ «دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يحتاج معها إلى تخرص المتكلمين، ولا إلى أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين»[٢].

٦- «كل من لم يقرّ بما جاء به الرسول ﷺ فهو كافر، سواء اعتقد كذبه، أو استكبر عن الإيمان به أو أعرض عنه اتباعاً لما يهواه، أو ارتاب فيما جاء به، فكل مكذب بما جاء به فهو كافر»[٣].

٧- من غاب عنه الدليل، جهل بالحق وغلب عليه الباطل فضلّ عن سواء السبيل، فإن «من لم يقبل الدليل من الكتاب والسنة، امتنع عليه معرفة الحق من الباطل؛ فإذا لم يعرف الحق بدليله، لم يبق هناك ما يمنعه من عقائد أهل الأهواء والضلال»[٤].

١- الرازي، مفاتيح الغيب، (١٤ / ١٨٧).
٢- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٢٨٠.
٣- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (١ / ١٤٤).
٤- علماء نجد الأعلام، الدرر السنية في الأجوبة النجدية، المحقق: عبد الرحمن بن محمد، ط٦، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، (١١ / ٣٥٢).

٨- تضمن قَوْلَهُ: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ نفيُ النبي ﷺ الكذب عن نفسه.

٩- دل وصفهم بعدم الفلاح أن المقصودين بالآية هم الكافرون، يقول الشنقيطي: «عرف باستقراء القرآن أن الغالب فيه أنّ لفظة لا يُفلح يراد بها الكافر»[١].

١٠- «يُفهَم من مفهوم مخالفة الآيات المذكورة أن مَن جانب تلك الصفات التي استوجبت نفي الفلاح... أنه ينال الفلاح، وهو كذلك كما بينه جل وعلا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ١]، والآيات بمثل ذلك كثيرة»[٢].

١١- «في الآيات حجة على القدرية والمعتزلة، لأنه عَزَّ وَجَلَّ نسب الافتراء والكذب إليهم وسماهم بذلك ظالمين، ثم أخبر عما ينالهم من نصيبهم من الكتاب وليس يخلو هذا النصيب المضاف إليهم من أن يكون نفس ما أتوه أو عقوبته وأيهما كان فهو قبل العمل، والعمل جار عليه لا محيص لفاعله»[٣].

١٢- كفر الكافر وإن عظم لا يكون مانعا من أن يصيبه ما كتب له من الرزق والأجل، يشهد لذلك قوله سُبْحَانَهُ ﴿ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

١٣- من حكمة التوسعة على الكافر في أمور الدنيا وعدم معاجلته العقوبة؛ لعله يصلح عمله ويتوب إلى الله.

١٤- يؤخذ من قوله تعالى ﴿قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ «زجر

١- الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (٤/ ٣٩).
٢- المرجع نفسه، (٤/ ٤٠).
٣- أحمد محمد بن علي القصَّاب، النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، تحقيق: علي التويجري، دار ابن عفان، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، (١/ ٤١٦).

الكافرين عما هم عليه من الكفر وحملهم على النظر والتأمل في عواقب أمورهم، والتحذير من التقليد الذي سيرديهم في الهاوية»[١].

١٥-مجيء الواو في أول الآية الأولى (ومن أظلم)، والفاء في أول الآية الرابعة (فمن أظلم)؟ لأَنَّ الآيات التي تقدمت في سورة الأنعام عطف بعضها على بعض بالواو، وأَما في سورة يونس فالآيات التي تقدمت عطف بعضها على بعض بالفاءِ، فافتتحت كل آية بما يتناسب مع ما قبلها.

١٦- وجه اختصاص آخر آية الأنعام بوصف (الظالمون) وآخر آية يونس بوصف (المجرمون) مع أنهما وصفين لفريق واحد؛ ليكون آخر كل آية موافق لأولها، يقول الأصبهاني: «أنه لما قال في الآية الأولى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وكان المعنى أنه لا أحد أظلم لنفسه ممن وصف الله تعالى بخلاف وصفه فأوردها العذاب الدائم، كان قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ عائدًا إلى من فعل هذا الفعل، أي: لا يظفر برحمه الله ولا يفوز بنجاة نفسه من كان ما ذكر من فعله، فبناء الآخر على الأول اقتضى أن يكون ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، أما الآية الثانية التي في سورة يونس فلأنها تقدمتها الآية التي تضمنت وصف هؤلاء القوم بما عاقبهم به فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [يونس: ١٣] فوصفهم بأنهم مجرمون عند تعليق الجزاء بهم، وقال بعده: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤] إلى الموضع الذي أبطل فيه حجتهم ودفع سؤالهم وهو ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ﴾ [من يونس: ١٥] فقال تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ليعلم أن هؤلاء سبيلهم في الضلال سبيل القوم الذين أخبر عن هلاكهم وقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى

١- المراغي، تفسير المراغي، (٨/ ١٤٨).

ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾؛ ليوقع التسوية بينهم في الوصف كما أوقع التسوية بينهم في الوعيد»[1].

المبحث الخامس: افتراء الكذب على الله، وادعاء النبوة.

قال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

المطلب الأول: صلة الآية بما قبلها

بعد أن بين الله سبحانه أن القرآن الكريم كتابًا من عنده، وردّ على منكري إنزاله على محمد ﷺ بدعوى بشريته، من جهة أن هذا القرآن كالتوراة التي آمنتم بإنزالها على موسى وهو بشر، شرع في هذه الآية بذكر وعيد من كذب على الله، وادعى النبوة، أو ادعى أنه قادر على أن يأتي بمثل هذا القرآن. قال الرازي: «اعلم أنَّه تعالى لـمّا شرح كون القرآن كتابًا نازلًا من عند الله وبيَّن ما فيه من صفات الجلالة والشَّرف والرِّفعة، ذكر عَقِيبَهُ ما يدل على وعيد من ادَّعى النبوة والرسالة على سبيل الكذب والافتراء فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾[2]، وقال الشوكاني: «هذه الجملة مقررة لمضمون ما تقدم من الاحتجاج عليهم بأن الله أنزل الكتب على رسله أي كيف تقولون ما أنزل الله على بشر من شيء وذلك يستلزم تكذيب الأنبياء عليهم السلام ولا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا فزعم أنه نبي وليس بنبي أو كذب على الله في شيء من الأشياء.»[3]

١- محمد بن عبد الله الأصبهاني، درة التنزيل وغرة التأويل، تحقيق: محمد مصطفى، معهد البحوث العلمية، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م، (٢ / ٥٠١-٥٠٢).

٢- الرازي، مفاتيح الغيب، (١٣ / ٦٨).

٣- الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية من علم التفسير، (٢ / ١٣٩).

المطلب الثاني: سبب نزول الآية

نزلت الآية في مسيلمة الكذاب الحنفي، وكان يسجع ويتكهَّن، ويدِّعي النبوة، ويزعم أن الله أوحى إليه، وكان قد أرسل إلى رسول الله ﷺ رسولين، قال نعيم، سمعتُ رسولَ الله -صلَّى الله عليه وسلم- يقول لهما حين قرآ كتابَ مُسيلمةَ: «ما تقُولان أنتُما؟ » قالا: نقولُ كما قال، قال: «أما واللهِ لولا أنَّ الرُّسلَ لا تُقتَلُ لضربتُ أعناقَكُما»[١].

المطلب الثالث: تفسير الآية

بينت الآية أنه لا أحد أعظم ظلمًا وأشد جرمًا ممن كذب على الله، وزعم أنه نبيًا مرسلًا وليس كذلك؛ حيث تقوّل على الله ما لم يقله، ونسب إليه ما هو منه بريء؛ «وإنما كان هذا أظلم الخلق؛ لأن فيه من الكذب، وتغيير الأديان أصولها وفروعها، ونسبة ذلك إلى الله وهو من أكبر المفاسد»[٢]، ويدخل في حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذبا بادعاء النبوة، والزعم بوحي الله إليه «فإنه مع كذبه على الله، وجرأته على عظمته وسلطانه، يوجب على الخلق أن يتبعوه. ويجاهدهم على ذلك، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم.»[٣] ومعلوم أن ادعاء النبوة بعده ﷺ تكذيب بما جاء في القرآن، فقد نص القرآن نصًا قطعيًا ظاهرًا على أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده يقول تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠] قال ابن كثير:

١- أخرجه أحمد في مسنده، (٥/ ٤٨٩)، رقم (١٥٩٨٩)، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الرسل، (٤/ ٣٩٩)، (٢٧٦١) والحاكم في المستدرك على الصحيحين، (٢/ ١٥٥)، كلهم من طرق عن مسلمة بن فضل الأنصاري، قال: حدثني محمد بن إسحاق، قال: حدثني سعد بن طارق الأشجعي، وهو أبو مالك، عن سلمة بن نعيم بن مسعود الأشجعي، عن أبيه نعيم به، وقال الحاكم، (٢/ ١٥٥): هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وفي إسناده مسلمة بن الفضل وفيه كلام، إلا أنه قوي في المغازي وقد توبع من يونس ابن بكير وغيره عن محمد بن إسحاق، أخرج طريقه البيهقي (٩/ ٢١١) وغيره، فالحديث بهذه المتابعة حسن.

٢- السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٢٦٤

٣- المرجع نفسه.

«هذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده، فلا رسول بالطريق الأولى والأحرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس»[١]، وقال الألوسي: «والمراد بكونه ﷺ خاتمهم انقطاع حدوث وصف النبوة في أحد من الثقلين بعد تحليه ﷺ بها في هذه النشأة».[٢] كما دلت السنة المتواترة عنه ﷺ أنه خاتم النبيين، فادعاء النبوة بعده إنكار لما تواتر من سنته وذلك كفر يقول عبد القاهر البغدادي: «كل من أقر بنبوة نبينا محمد ﷺ، أقر بأنه خاتم الأنبياء والرسل، وأقر بتأييد شريعته، ومنع من نسخها، وقد تواترت الأخبار عنه بقوله: «لا نبي بعدي»[٣] ومن رد حجة القرآن والسنة فهو الكافر»[٤]، ويقول ابن كثير: «قد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده، ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل»[٥]. كذا في ادعاء النبوة مخالفة لإجماع الأمة، فقد أجمع المسلمون على أنه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وأنه لا نبي بعده، كما أجمعوا على تكفير من ادعى النبوة لأحد بعد رسول الله ﷺ قال ابن حزم: «من ادعى نبوةً لأحد بعد رسول الله ﷺ - حاشا عيسى ابن مريم - فهو كافر، ولا خلاف في ذلك من أحد من أهل الإسلام، وذلك لخلافه القرآن، والثابت عن رسول الله ﷺ»[٦]، ويقول ملا علي قاري: «ودعوى النبوة بعد نبينا ﷺ كفر بالإجماع»[٧]، قوله (وَمَن قَالَ

١- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٦ / ٤٢٨).
٢- الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (١١ / ٢١٣).
٣- جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذُكر عن بني إسرائيل، (٤ / ١٦٩)، ح [٣٤٥٥]، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، (٣ / ١٤٧١)، ح [١٨٤٢].
٤- عبد القاهر بن طاهر البغدادي، أصول الدين، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص ١٦٢-١٦٣ بتصرف.
٥- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٦ / ٤٣٠).
٦- ابن حزم علي بن أحمد، كتاب الدرّة فيما يجب اعتقاده، تحقيق: أحمد بن ناصر، مكتبة التراث، مكة، ١٩٨٨م، ص٢٠٦.
٧- ملا علي قاري، شرح الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت، ص٢٤٤.

﴿سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾ أي ولا أظلم «ممن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي بما يفتريه من القول»[١]. هذا وقد اختلف المفسرون فيمن نزلت الآية على أقوال ثلاث: أحدها: من تقدم ذكره من مدعي الوحي والنبوة، والثاني أنها نزلت في عبد الله بن أبي السرح، والثالث: أنها نزلت في النضر بن الحارث؛ لأنه عارض القرآن[٢]، وكما هو مقررٌ فالعبرة بعموم اللفظ فيدخل كل من اتصف بذلك يقول ابن عطية: «فخصص المتأولون في هذه الآيات ذكر قوم قد يمكن أن كانوا أسباب نزولها ثم هي إلى يوم القيامة تتناول من تعرض شيئا من معانيها»[٣]. قوله ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وهم الموصوفون بالصفات المذكورة قبل ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾ شدائده وسكراته، وحذف جواب (لو)؛ لأن في الكلام ما يدل عليه، والتقدير: ولو تراهم في هذِه الحال، لرأيت عجبًا.[٤] «وحذف هذا الجواب أبلغ من نصه؛ لأن السامع إذا لم ينص له الجواب يترك مع غاية تخيله»[٥].

قوله ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ بسط اليد كناية عن مدها بالمكروه لا لقبض النفس فقط، فهو أمر مشترك بين الخلق جميعًا مؤمنهم وكافرهم[٦]، والمعنى: يبسطون أيديهم بالعذاب والضرب كقوله تعالى ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، يقولون ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ أي: هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم «عند معاينة الموت إرهاقاً لهم وتغليظاً عليهم، وإن كان إخراجها من فعل غيرهم»[٧]،

١- القاسمي، محاسن التأويل، (٤ / ٤٣٢).
٢- ينظر: الماوردي، علي بن محمد، النكت والعيون، (٢ / ١٤٤)، ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٢ / ٣٢٢).
٣- ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٢ / ٣٢٣).
٤- ينظر: تفسير السمرقندي، الثعلبي، أحمد بن إبراهيم، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، (١٢ / ١٥٠)، القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، (٧ / ٤١).
٥- ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٢ / ٣٢٣).
٦- المصدر السابق.
٧- الماوردي، النكت والعيون، (٢ / ١٤٤).

أو قد يراد بقوله أخرجوا أنفسكم أي خلصوها مما هي فيه من عذاب وشدة إن استطعتم، وإنما يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا وتوقيفًا لهم على ما سلف منهم من قبائح أفعالهم.[1] قوله ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ المراد باليوم وقت الإماتة، وهذا قول الملائكة لهم حين تنزل لقبض أرواحهم، أو أريد باليوم الوقت الذي يعذبون فيه الذي مبدؤه عذاب القبر، وعذاب الهُون هو الْعَذَابُ الَّذِي يصيرون بِهِ في هوان شديد وذلة، فجمع لهم بين الإيلام والإهانة.[2] ولكون الجزاء من جنس العمل فإن هذا العذاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ من أنّ له شريكًا أو ولدًا، أو أنه لم يرسل رسلًا ولم ينزل كتبًا، أو تزعمون أنّه أنزل عليكم ولم ينزل ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ تأنفون عن قبول آياته، فلا تؤمنون بها ولا تنقادون لها. يقول ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ لفظ جامع لكل نوع من الكفر ولكنه يظهر منه ومن قوله ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ «الإنحاء على من قرب ذكره من هؤلاء الذين ادعوا الوحي وأن ينزلوا مثل ما أنزل الله، فإنها أفعال بيّن فيها قول غير الحق على الله، وبين فيها الاستكبار»[3].

المطلب الرابع: فوائد الآية

١- «كل مَنْ نسب إلى الله تعالى ما هو بريء منه، إما في الذات، وإما في الصفات، وإما في الأفعال كان داخلًا تحت هذا الوعيد»[4].

٢- هذه الآية وإن نزلت في أقوام معينين لكن حكمها عام كما يفيده عموم ألفاظها، قال ابن عطية: «هذه ألفاظ عامة فكل من واقع شيئًا مما يدخل تحت

١- ينظر: الماوردي، النكت والعيون، (٢/ ١٤٥)؛ ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٢/ ٣٢٣).
٢- ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (١٣/ ٧٠)، الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الدراية والرواية من علم التفسير، (٢/ ١٦٠).
٣- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٢/ ٣٢٣).
٤- الرازي، مفاتيح الغيب، (١٣/ ٦٩).

هذه الألفاظ فهو داخل في الظلم الذي قد عظمه الله تعالى بقوله (وَمَنْ أَظْلَمُ)»[١].

٣- يدخل في حكم الآية كل مدع للنبوة كمسيلمة، والأسود العنسي وغيرهما، يقول ابن تيمية: «ومن ادعى النبوة وهو كاذب، فهو من أكفر الكفار، وأظلم الظالمين، وشر خلق الله تعالى»[٢]، وقال الرازي: «الذي يفتري على الله الكذب يدخل فيه من يدّعي الرسالة كذبًا، ولكن لا يقتصر عليه؛ لأنَّ العبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السبب»[٣].

٤- مدعي النبوة كافر مستباح الدم؛ لمخالفته الكتاب والسنة والإجماع، يقول الألوسي: «وكونه ﷺ خاتم النبيين مما نطق به الكتاب، وصدعت به السنة، وأجمعت عليه الأمة، فيكفر مدعي خلافه، ويقتل إن أصر»[٤]، ويقول ابن تيمية: «ومعلوم أن من كذب على الله بأن زعم أنه رسول الله أو نبيه، أو أخبر عن الله خبراً كذب فيه... فإنه كافر حلال الدم»[٥].

٥- مدعي النبوة يناقض بدعواه حكم الله سبحانه بكمال الدين وتمامه قال ﷻ ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[من المائدة: ٣]، قال ابن كثير: «هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى

١- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٢ / ٣٢٢).
٢- ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: علي حسن ناصر وآخرون، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ، (٨ / ٥٢).
٣- الرازي، مفاتيح الغيب، (١٣ / ٦٨-٦٩).
٤- الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (١١ / ٢١٩-٢٢٠).
٥- ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، الصارم المسلول على شاتم الرسول، المحقق: محمد محي الدين، الحرس الوطني السعودي، المملكة العربية السعودية، (د.ت)، ص١٧١.

الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه»[١]، وقال ابن حزم: «اتفقوا أن دين الإسلام هو الدين الذي لا دين لله في الأرض سواه، وأنه ناسخ لجميع الأديان قبله، وأنه لا ينسخه دين بعده أبداً، وأن من خالفه مّمن بلغه كافر مخلد في النار أبداً»[٢].

٦- في ادعاء الإتيان بمثل القرآن ادعاء للألوهية قال القاسمي: «قال المهايمي[٣]: من أنكر إعجاز القرآن حتى قال سأنزل مثل ما أنزل الله، مع أنه قد عرف إعجازه، فكأنه ادعى لنفسه قدرة الله، فكأنه ادعى الإلهية لنفسه، ولا يجترئ على هذه الوجوه من الظلم من يؤمن بالآخرة»[٤].

٧- في قوله ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ تصوير لما يلقاه أولئك الظالمين من التشديد في نزع أرواحهم من غير تنفيس وإمهال، وما يعذّبون به من شدّة ذلك النّزع.

٨- دلت الآية على أن العذاب الشديد إنما حصل بسبب مجموع الأمرين الافتراء على الله، والتكبر على آيات الله.

٩- الوعيد المذكور في الآية يتضمن الشهادة بصدق النبي ﷺ «ذلك أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر إذا لم يكن له بد من الإيمان بأن القرآن من عند الله، ومن الاهتداء به، فأكمل الناس إيمانًا بالدار الآخرة وما فيها من الجزاء وهو محمد ﷺ لا يمكن أن يعرّض نفسه لمنتهى الظلم الذي يستحق عليه أشد

١- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٣/ ٢٦).
٢- علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ص١٧٢-١٧٣.
٣- علي بن أحمد بن علي المهائمي الهندي، المعروف بالمخدوم، باحث مفسرن كان يقول بوحدة الوجود. من مصنفاته تبصير الرحمن وتيسير المنان ببعض ما يشير إلى إعجاز القرآن، شرح النصوص للقونوي، أدلة التوحيد، خصوص النعم في شرح فصوص الحكم وغيرها توفي سنة ٨٣٥هـ. ينظر الزركلي، خير الدين بن محمود، دار العلم، بيروت، الطبعة ١٥، ٢٠٠٢م.
٤- القاسمي، محاسن التأويل، (٤/ ٤٣٢).

العذاب»[١].

١٠- في الاستكبار عن الإيمان بما أنزل الله من آيات، احتقار لمن أكرمه الله بإنزالها عليه، وإظهارها على يده ولسانه.

١١-دلت الآية على إثبات عذاب القبر ونعيمه؛ حيث إن الخطاب في قوله ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ والعذاب الموجه إليهم، إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده.[٢]

١٢-في الآية «دليل على أن الروح جسم، يدخل ويخرج، ويخاطب، ويساكن الجسد، ويفارقه، فهذه حالهم في البرزخ.»[٣]

المبحث الثامن: افتراء الكذب على الله، والتكذيب بالحق وقائله، وفيه ثلاث آيات

الآية الأولى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

المطلب الأول: صلة الآية بما قبلها

بعد أن امتن الله عز وجل على المشركين بجملة من النعم، كجعله بلدهم حرمًا آمنًا، وإنجائهم مما وقعوا فيه من شدة وبلاء، بين في هذه الآية عظم ظلمهم؛ حيث جعلوا موضع شكرهم له على النجاة شركهم بعبادة غيره وهذا ظلم؛ إذ الظلم في حقيقته وضع الشيء في غير موضعه. قال المراغي: «لما استنارت الحجة، وظهر الدليل، ولم يكن لهم فيه مقنع، بين أنهم قوم ظلمة مفترون، وضعوا الأمور في

١- المراغي، تفسير المراغي، (٧/ ١٩٣).
٢- ينظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص٢٦٤.
٣- المصدر نفسه، نفس الصفحة.

غير مواضعها بكذبهم على الله»[1].

المطلب الثاني: تفسير الآية

قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ) أي لا أحد أعظم ظلمًا ممن افترى على الله الكذب فنسب إليه ما لا يليق به سبحانه من الشريك والولد، وإذا فعل فاحشة قال: وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، أو شرع من الدين ما لم يشرعه ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ وفي معنى الحق ثلاثة تأويلات، أحدها التوحيد، قاله السدي. الثاني القرآن، قاله يحيى بن سلام. الثالث محمد صلى الله عليه وسلم. وهذه الأقوال لا تعارض بينها فمن كذب بالقرآن فقد كذب بالتوحيد الذي أوجبه، وبمحمد ﷺ الذي أنزل عليه. قوله ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ الاستفهام للتقرير، أي في النار مثوى ومسكن لمن كفر بالله، وجحد توحيده، وكذب رسوله ﷺ.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

المطلب الأول: صلة الآية بما قبلها

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى بعض قبائح الكفار وبين وعيدهم على سبيل الاستقصاء، وأعقبه بمثل يدل على فساد مذهبهم وقبح طريقتهم، أتى في هذه الآية على ذكر نوع آخر من قبائح أفعالهم وسوء معتقداتهم، وهو افتراءهم الكذب على الله بإثبات الولد له والشريك، وتكذيبهم القائل المحق، فيكذبون رسول الله ﷺ بعد قيام الأدلة القاطعة على صدقه[2]. بينما يرى أبو السعود أن الآية مسوقة «لبيان حال كل من طرفي الاختصام الجاري في شأن الكفر والإيمان لا غير»[3]، يشير بذلك لقوله ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١].

١- المراغي، تفسير المراغي، (٢١/ ٢٤).
٢- ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، (٢٦/ ٢٤١)؛ المراغي، تفسير المراغي، (٢٤/ ٤).
٣- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٧/ ٢٥٤).

المطلب الثاني: تفسير الآية

قوله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي لا أحد أعظم ظلمًا ممن كذب على الله فادعى له الصاحبة والولد والشريك، أو حرم شيئًا لم يحرمه الله، أو أحل ما حرم الله افتراء عليه ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي بالقرآن الذي جاء به رسول الله ﷺ وهو الصدق عينه، وفي تكذيبهم بالقرآن تكذيب بما فيه من الدعوة إلى التوحيد، وما أمر الله به من الشرائع ، وما نهى عنه من محارم وما أخبر عنه من البعث والنشور. وفي قوله ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ إشارة إلى أنه سارع إلى تكذيبه وقت مجيئه دون تأن أو إعمال فكر ونظر فيما جاءه، أو تمييز بين الحق والباطل، لذا توعدهم الله توعدًا فيه احتقارهم فقال ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ وقوله (أَلَيسَ) لفظ استفهام يراد به التحقيق، أي النار مأوىً لهؤلاء الذين افتروا على الله ﷻ وسارعُوا إلى التَّكذيبِ بالصَّدقِ من أوَّلِ الأمرِ.[١]

الآية الثالثة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

المطلب الأول: صلة الآية بما قبلها

جاءت هذه الآية عقب قوله تعالى﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦] «ولما كان التقدير إعلاماً بأنهم أظلم الناس لتعمدهم للكذب، فمن أظلم منهم لتهتكهم في ذلك، عطف عليه قوله: (وَمَن أَظلَمُ) وعم كل من اتصف بوصفهم (مِمَّنِ افتَرَى)»[٢].

١- ينظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (٢١ / ٢٨٨)، أبو حيان، البحر المحيط، (٧/ ٤١١).
٢- البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٧ / ٥٨٢).

المطلب الثاني: تفسير الآية

في قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ) تعجب وتقرير، أي لا أحد أشد ظلمًا ممن دعي إلى الإسلام الذي هو خير الأديان وأشرفها، الدين الظاهر حقيته، فيضع موضع الإجابة الافتراء على الله ﷻ بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحقِّ هذا سحرٌ، وتكذيب رسوله.[1] يقول ابن عطية: «افتراء الكذب هو قولهم هذا سِحْرٌ، وما جرى مجرى هذا من الأقوال التي هي اختلاق وبغير دليل»[2]، وقال ابن عاشور: «وإنما جُعل افتراؤهم الكذب على الله؛ لأنهم كذبوا رسولًا يخبرهم أنه مرسل من الله، فكانت حرمة هذه النسبة تقتضي أن يُقبلوا على التأمل والتدبر فيما دعاهم إليه ليصلوا إلى التصديق، فلما بادروها بالإعراض وانتحلوا للداعي صفات النقص كانوا قد نسبوا ذلك إلى الله دون توقير»[3]. من هنا استحق أولئك بكفرهم ألا يخلق الله الهداية في قلوبهم فقال ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: «والله لا يوفِّق القوم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم به لإصابة الحقّ»[4].

المطلب الثالث: فوائد الآيات

١- من قبائح أفعال المشركين والتي بينتها الآيات، أنهم إلى جانب كذبهم، يكذّبون القائل المحقّ، قال ابن كثير: «لا أحد أظلم من هذا لأنه جمع بين طرفي الباطل كذب على الله وكذب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق»[5].

٢- في قوله ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ وضع الاسم الظاهر (لِّلۡكَٰفِرِينَ) موضع الضمير (لهم)؛ فيه تنبيه على علة كذبهم وتكذيبهم، وهو الكفر.

١- ينظر: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (١٤/ ٢٨٢).
٢- ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (٥/ ٢٧٨).
٣- ابن عاشور، التحرير والتنوير، (٢٨/ ١٨٨).
٤- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (٢٣/ ٣٥٩).
٥- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (٧/ ٩٨).

٣- الكذب عظيم القباحة في نفسه؛ فكيف لو كان على ملك الملوك سبحانه؟؟[١]

٤- من أعظم أنواع الظلم دفع الحق المؤيد بالبينات ورده.

٥- الآية الثالثة إما مستأنفة رسالة النبيّ ﷺ طليعة للآيات بعدها، وإما متممة لما قبلها، لتقبيح ما بهت به الإسرائيليون عيسى عليه السلام مع الإشارة بعمومها إلى ذم كل من كان على شاكلتهم؛ لذا قال القرطبي: «هذا تعجب ممن كفر بعيسى ومحمد بعد المعجزات التي ظهرت لهما»[٢].

٦- الهداية نوعان، هداية إرشاد ودلالة وهي عامة لجميع الخلق، وهداية توفيق لقبول الحق وهي خاصة بالمؤمنين، أما مَنْ كان في حكم الله أن يُختم له بالضلالة فلن يشرح صدره للإسلام ولن يوفقه لقبول الحق.

٧- حِرمان الظلمة المتوغلين في الظلم من الهداية.

٨- الإسلام هو دين الحق الذي لا يقبل الله دينا غيره قال تعالى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقد أقام سبحانه البراهين الدالة على ذلك، فمن قابل الدعوة إليه بالكفر وتكذيب الرسول الداعي إليه، ووصف آياته بما لا دليل لهم عليه فلن يوفق لقبول الحق؛ لإثباته المنفي ونفيه الثابت.

المبحث التاسع: الإعراض عن التذكرة بآيات الله، وفيه آيتان:

الآية الأولى: قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

١- ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٦/ ٤٤٦).
٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (١٨/ ٨٤)، وينظر: القاسمي، محاسن التأويل، (٩/ ٢٢٣).

المطلب الأول: صلة الآية بما قبلها

لما حكى سبحانه وتعالى في الآيات السابقة عن الكفار جدالهم بالباطل، واستهزائهم وضلالهم، وصفهم في هذه الآية بما يوجب الخزي والخذلان من الصفات، فقال (وَمَنْ أَظْلَمُ)[1].

المطلب الثاني: تفسير الآية

يخبر سبحانه أنه لا أحد أظلم وأشد كفرًا ممن ذكر بآيات القرآن فأعرض عنها ولم يتدبرها ولم يتعظ بها، ونسي ما أسلف من الذنوب، ولم يتفكر في عواقب كفره ومعاصيه فلم يتب، قال الطبري: «وأي الناس أوضع للإعراض والصدّ في غير موضعهما ممن ذكره بآياته وحججه، فدله بها على سبيل الرشاد، وهداه بها إلى طريق النجاة، فأعرض عن آياته وأدلته التي في استدلاله بها الوصول إلى الخلاص من الهلاك ونسي ما أسلف من الذنوب المهلكة فلم يتب، ولم ينب»[2]، ثم قال ﷻ تعليلاً لإعراضهم ونسيانهم ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي جعل عليها أغطية لئلا يفقهوا ما ذكِّروا به (وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا) أي ثقلًا لئلا يسمعوه؛ مجازاة لهم على كفرهم.

وفي قوله ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ خطاب من الله لنبيه ﷺ بطريق الالتفات أي إن تدع يا محمد أولئك المعرضين عن الآيات إلى الإيمان بالله وما جئتهم به، والاستقامة على طريق الحق، فلن يؤمنوا بما دعوتهم إليه، ولن يستقيموا لك أبدا؛ ذلك أن الله ختم على قلوبهم وسمعهم. قال المراغي: «فقدوا الاستعداد لقبول الرشاد، بما دنسوا به أنفسهم من قبيح الأفعال والأقوال، وبما اجترحوا من الكفر والفسوق والعصيان، فأصبح بينهم وبين سماع الحق حجاب

١- ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٤ / ٤٨٣)، الرازي، مفاتيح الغيب، (٢١ / ١٢١).
٢- الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، (١٨ / ٥١).

غليظ، فلا ينفذ إلى السمع شيء مما يسمع سماع تدبر واتعاظ، ولا إلى القلب شيء مما يقال فيعيه وينتفع به كما قال سبحانه وتعالى ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] وقال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧][١].

الآية الثانية: قال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

المطلب الأول: صلة الآية بما قبلها

بعد أن بين سبحانه وتعالى في الآيات السابقة حال المؤمنين عند تلقيهم آيات الله، ذكر في هذه الآية حال من قابلها بالتولي والإعراض، قال أبو السعود: «بيان إجمالي لحال من قابل آيات الله تعالى بالإعراض بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد»[٢].

المطلب الثاني: تفسير الآية

قوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام معناه النفي، أي لا أحد أظلم ممن هذه صفته، وجاء الفعل (ذُكّر) بصيغة المبني للمجهول ليعم كل مُذكِّر، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (بِايَاتِ رَبِّهِ) آيات الله هي القرآن العظيم، و«أتى بالربوبية المقتضية للانقياد؛ لأنه ما دام التذكير بآيات ربٍّ لك فأنت مربوب عبد، والمربوب في تدبير ربه»[٣].

﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ أي تولى عنها ولم يتدبر فيها وأتى ب (ثم) للاستبعاد، أي إن الإعراض عن مثل هذه الآيات مع وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل، وقد تكون

١- المراغي، تفسير المراغي، (١٥ / ١٦٨).
٢- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (٧ / ٨٦).
٣- العثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص١٠٤.

(ثم) على بابها للتراخي وحسّنه البقاعي، فيكون المعنى إن من وقع له التذكير بها في وقت ما، فأخذ يتأمل فيها ثم أعرض عنها بعد ذلك ولو بألف عام فهو أظلم الظالمين.[1] ثم توعد سبحانه وتعالى الْمُجْرِمِينَ وهم الكفار بالنقمة فقال ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾، والمعنى: إنا من الذين اكتسبوا الآثام، واجترحوا السيئات منتقمون.[2] وإذا كان هذا وعيد المجرمين فكيف بمن هُو أظلم من كل ظالم وأشد جرمًا من كل مجرم يقول النسفي: «ولم يقل منه لأنه إذا جعله أظلم كل ظالم ثم توعد المجرمين عامة بالانتقام منهم، فقد دل على إصابة الأظلم النصيب الأوفر من الانتقام»[3]، وقد يكون المراد بالمجرمين من أعرض عن آيات ربه، ووضع الاسم الظاهر موضع الضمير؛ ليبين علة الانتقام منه، يقول الألوسي: «ويجوز أن يراد بالمجرم المعرض المذكور، وقد أقيم المظهر مقام المضمر الراجع إلى مَنْ باعتبار معناها وكان الأصل إنا منهم منتقمون؛ ليؤذن بأن علة الانتقام ارتكاب هذا المعرض مثل هذا الجرم العظيم»[4].

المطلب الثالث: فوائد الآيات

١- قوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام على سبيل التقرير، ولكنه أظهر للتنبيه على الوصف الموجب للإنكار على من شك في أنهم أظلم.[5]

٢- قوله ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ استعير التذكير للتبليغ لأن هذا التبليغ لوضوحه وقوة ظهوره كان ينبغي أن يكون حاضرًا في الأذهان لوجوب الإيمان والعمل به. وإضافة الآيات إلى (ربّ) دون غيره من الأسماء الحسنى وإضافته إلى

١- ينظر: البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٦/ ٦١)، النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (٣/ ١٠).
٢- الطبري، في جامع البيان في تأويل القرآن، (٢٠/ ١٩٣).
٣- النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (٣/ ١٠).
٤- الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (١١/ ١٣٤).
٥- البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، (٤/ ٤٨٣).

ضمير المتحدَّث عنه إشارة إلى قبح الإعراض المذكور لما في كلمة (رب) من معاني الإنعام والإحسان. وحذف الفاعل من فعل (ذُكّر) فيه تكثير للمعنى حتى لا ينحصر الإعراض عن تذكير الرسل فقط وإنما يشمل كُلَّ مُذَكِّرٍ، سواء أكان من الرسل أم الدعاة بعدهم.

٣- ورود (أكنّة) و (وقرًا) نكرة للدلالة على التكثير والتكثيف فكأنها أغطية فوق أغطية وحُجب فوق حُجب فلا ينفذ منها شيء من الهدى ولذلك ختمت الآية بقوله (فَلَن يَهتَدُواْ إِذًا أَبَدا) توكيدًا لنفي الإيمان والاهتداء باستخدام (لن).

٤- من عواقب الإعراض التي بينها الله تعالى في الآيتين، جَعْل صاحبه من أعظم الناس ظلمًا، وانتقام الله تعالى منه، وجَعْل الأكنة على قلبه حتى لا يفقه الحق، وعدم الاهتداء أبدًا، هذا وقد أورد الشنقيطي جملة من عواقبه المذكورة في كتاب الله منها: كون المعرض كالحمار لقوله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩-٥٠]، ومنها الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود قال تعالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، ومنها تقييض القرناء من الشياطين وذلك قوله تعالى ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦][١].

٥- الإعراض عن كتاب الله من نواقض الإيمان؛ فالإيمان يتضمن الطاعة والانقياد والتسليم والخضوع، والإعراض ضد ذلك وينافيه، فهو تولٍ وصدود، وتركٍ وامتناع، وهو إعراض عن الهدى وعدم إرادته والعمل به وبموجبه؛ لذا نفى الله تعالى الإيمان عمن أعرض وتولى عن دينه يقول تعالى ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧ وَإِذَا

١- ينظر: الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (٣/ ٣٠٩).

دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [النور: ٤٧-٤٨] يقول ابن تيمية: «فنفى الإيمان عمن تولى عن العمل وإن كان قد أتى بالقول»[١] فكيف بمن تولى عنهما معا؟؟

٦- الجزاء من جنس العمل فهؤلاء لما ذُكّروا بآيات ربهم فأعرضوا عنها، كان عقابهم أن جعل الله تعالى على قلوبهم أكنّة وأغطية حاجبة لقلوبهم عن التأثر، وثقلًا مانعًا لأسماعهم من السمع تقبيحًا لهم.

٧- قوله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية الأولى ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾، وفي الآيةِ الأخرى ﴿فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا﴾ والفَرْقُ بينهما أن قوله ﴿فَأَعۡرَضَ﴾ يفيد أنه بادر بالإعراض، أما الإتيان ب (ثم) دلّ على أنه أعرض بعدما فكر وقدر، وهذا يدل على أن المعرضين على قسمين، فمنهم من أعرض مباشرة دون التفات وتفكر، ومنهم من أعرض بعد تفكر وتدبر فكان أقبح حالًا.[٢]

٨- بيان أنه لا أظلم ممن ذكر بآيات الله فيعرض عنها مستكبراً جاحداً معانداً.

المبحث العاشر: إشكال ورده

صدرت الآيات كلها بأسلوب الاستفهام الذي هو بمعنى النفي، فيؤول إلى الخبر، ولما كان خبرًا توهم بعض الناس أنه إذا أخذت هذه الآيات على ظواهرها فهي متناقضة، فإن الله ﷻ يخبر في موضع أنه لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله، وفي موضع آخر ممن ذكر بآياته وأعرض عنها، وفي موضع ثالث ممن افترى عليه كذبًا، إلى غير ذلك من آيات. فكل موضع منها يقتضي أن المذكور فيه لا يكون أحد أظلم منه، فكيف يوصف غيره بذلك؟.

١- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (٧/ ١٤٢).
٢- ينظر: العثيمين محمد بن صالح، تفسير القرآن الكريم، ص١٠٤.

وللعلماء في الإجابة عن هذا الإشكال أقوال، أولها: أن تختص كل آية ببابها، وتأوّل بمعنى صلتها ففي المانعين لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وفي المعرضين لا أحد أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها، وفي المفترين لا أحد أظلم ممنى افترى على الله كذبًا، وكذلك باقي الآيات، فإذا تخصصت بالصلات زال التناقض عند من توهمه. ثانيها: خصهم بأنهم الأظلم باعتبار سَبْقهم، فإنه لما لم يسبق أحدٌ إلى مثله، حكم عليهم بأنهم أظلم ممن جاء بعدهم، سالكاً طريقتهم في ذلك، وهذا يؤول معناه إلى السبق في المانعية، أو الافترائية.[١] واعترض أبو حيان على هذين الجوابين بقوله: «وهذا كله بعد عن مدلول الكلام ووضعه العربي، وعُجمة في اللسان يتبعها استعجام المعنى»[٢].

ثالثها: إن الاستفهام قصد به نفي الزيادة في الظلم دون نفي المساواة[٣]، فهؤلاء كلهم قد بلغوا في الظلم غايته، ولا ضير من تساويهم إذ أن أفعالهم تؤدي إلى الكفر، وهو أمر واحد لا يمكن فيه الزيادة بالنسبة إلى أفراده، وهذا الوجه صوبه أبو حيان فقال: «هذا نفي للأظلمية، ونفي الأظلمية لا يستدعي نفي الظالمية، لأن نفي المقيد لا يدل على نفي المطلق.. وإذا لم يدل على نفي الظالمية لم يكن تناقضاً، لأن فيها إثبات التسوية في الأظلمية، وإذا ثبتت التسوية في الأظلمية لم يكن أحد ممن وصف بذلك يزيد على الآخر، لأنهم يتساوون في الأظلمية. وصار المعنى لا أحد أظلم ممن منع، وممن افترى، وممن ذكِّر. ولا إشكال في تساوي هؤلاء في الأظلمية، ولا يدل على أن أحد هؤلاء أظلم من الآخر... فلا يقال: إن من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعى في خرابها، ولم يفتر على الله الكذب،

١- ينظر: أبا حيان، البحر المحيط، (١ / ٥٢٧)؛ السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، (٢ / ٧٧-٧٨)، الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (٤ / ٧٦)؛ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المحقق: محمد أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، (٣ / ٩٩).

٢- أبو حيان، البحر المحيط، (١ / ٥٢٧).

٣- ينظر: أبا حيان، البحر المحيط، (١ / ٥٢٧)، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، (٣ / ٩٩)، محمد عضيمة، دراسات في أسلوب القرآن، دار الحديث، القاهرة، (د.ت)، (٣ / ٢٧٨).

أقلّ ظلماً ممن جمع بينهما، فلا يكون مساوياً في الأظلمية، لأن هذه الآيات كلها إنما هي في الكفار، فهم متساوون في الأظلمية، وإن اختلفت طرق الأظلمية. فكلها صائرة إلى الكفر فهو شيء واحد لا يمكن فيه الزيادة بالنسبة لأفراد من اتصف به، وإنما تكون الزيادة في الظلم بالنسبة لهم، وللعصاة المؤمنين بجامع ما اشتركوا فيه من المخالفة، فنقول: الكافر أظلم من المؤمن، ونقول: لا أحد أظلم من الكافر. ومعناه أن ظلم الكافر يزيد على ظلم غيره»[1]، وتعقبه الألوسي بقوله: «ولا يخفى ما فيه، وقد قال غير واحد إن قولك من أظلم ممن فعل كذا إنكار لأن يكون أحد أظلم منه أو مساويًا له، وإن لم يكن سبك التركيب متعرضًا لإنكار المساواة ونفيها إلا أن العرف الفاشي والاستعمال المطرد يشهد له، فلعل الأولى الرجوع إلى أحد الجوابين مع ملاحظة الحيثية»[2]، رابعها: أن الاستفهام مقصود به التهويل والتفظيع من غير قصد إثبات الأظلمية للمذكور حقيقة، ولا نفيها عن غيره، وإليه نحى الزركشي وتبعه السيوطي، ومال إليه الألوسي بقوله: «وإن جعلت ذلك الكلام مخرجًا مخرج المبالغة في التهديد والزجر مع قطع النظر عن نفي المساواة أو الزيادة في نفس الأمر كما قيل به، محكمًا العرف أيضا زال الاشكال وارتفع القيل والقال فتدبر»[3]، وهذا القول ضعفه الشنقيطي لمخالفته ظاهر القرآن.[4]

يُلحظ مما سبق أن المفسرين قد اتجهوا في الرد على هذا الإشكال اتجاهات عدة، يكفي كل واحد منها في دفع ما قد يتوهم من وجود تعارض بين هذه الآيات.

١- أبو حيان، البحر المحيط، (١ / ٥٢٧)، وينظر: السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، (٢ / ٧٧)، ابن عادل، عمر بن علي، اللباب في علوم الكتاب، (٢ / ٤٠٥).

٢- الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، (١ / ٣٦٢).

٣- المصدر نفسه، وينظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، (٣ / ٩٨)، الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (٤ / ٧٦).

٤- ينظر: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م، ص٢٢.

الخاتمة

الحمد لله الذي أسبغ عليّ نعمته بإتمام هذا البحث، وبعد أن تفيأت ظلال هذه الآيات المباركات خرجت بجملة من النتائج أجملها فيما يلي:

- جاء قوله تعالى (ومن أظلم) و (فمن أظلم) في خمسة عشر موضعا من كتاب الله، وردت كلها في السور المكية[١] عدا موضعين وردا في سورة البقرة وهي مدنية.
- الاستفهام الوارد في قوله (ومن أظلم) خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر بغرض المبالغة في النفي تشنيعًا لتلك الأفعال.
- منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، والسعي في خرابها، وكتمان الشهادة، والتكذيب بآيات الله والإعراض عنها، وافتراء الكذب على الله تعالى بكافة أشكاله، من نسبة الشريك والولد، وتحليل ما حرم وتحريم ما أحل، وادعاء النبوة ونحو ذلك من صور الافتراء من أسباب استحقاق فاعلها الوصف بأنه الأظلم.
- الأمور التي وصف فاعلها بأنه لا أحد أظلم منه يتعلق غالبها بأصول الدين والاعتقاد.
- سوء مصير هؤلاء الأظلمين، حيث تضمنت الآيات أشد الوعيد وأبلغ التهديد.
- كان لهذه الآيات النصيب الأوفر من بلاغة النظم وحسن البيان، بأسلوبها الترهيبي الذي يحذر من ارتكاب ما ورد في الآيات مما نهى الله ﷻ عنه؛

١- وهي كالآتي أربع مواضع في سورة الأنعام، وموضعين في سورة الكهف، وموضع في كل من سورة الأعراف، ويونس، وهود، والعنكبوت، والسجدة، والزمر، والصف.

حيث إن في هذا الأسلوب «تنبيه للسامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل، أو يرتدع عن فعل ما أهم به»[1]، كما أن فيه خلقًا للمهابة في قلوب المخاطبين.

- لا تعارض بين الآيات المذكورة؛ إذ أن قوله تعالى (ومن أظلم) إما باعتبار صلة الاسم الموصول (مَنْ)، أو باعتبار السبق إلى ما ذكر في كل آية، أو أن الاستفهام قصد به نفي الزيادة في الظلم دون نفي المساواة، أو أنه جاء لغرض التهويل والتفظيع.

التوصيات:

مما أوصي به كل مسلم ومسلمة تدبر الآيات التي صُدِّرت بقول الله تعالى (ومن أظلم) أو بقوله سبحانه (فمن أظلم)؛ وينتبه للأوصاف المذكورة عَقِبَها ليتجنب الوقوع فيما حذرت منه الآيات ونهت عنه، كذا الاستفادة من أسلوب القرآن العظيم في الترهيب والتخويف لا سيما من قبل الدعاة، والتربويين.

١- جلال الدين القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الجيل، بيروت، ط٣، (د.ت)، (٣/ ٧٣).

المصادر

- ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد الرازي، تحقيق: أسعد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٩ هـ.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: علي حسن ناصر وآخرين، دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، الصارم المسلول على شاتم الرسول، تحقيق: محمد محي الدين، الحرس الوطني السعودي، المملكة العربية السعودية، (د.ت).
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، المحقق: عبد الرحمن بن محمد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، النبوات، تحقيق: عبد العزيز الطويان، أضواء السلف، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- ابن الجزري، محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، المحقق: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).
- ابن حبان، محمد البُستي، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ابن حزم، علي بن أحمد، كتاب الدرّة فيما يجب اعتقاده، تحقيق: أحمد بن ناصر، مكتبة التراث، مكة، ١٩٨٨م.
- ابن حزم، علي بن أحمد الأندلسي، مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).
- ابن حنبل، أحمد بن محمد، مسند أحمد بن حنبل، تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.
- ابن دريد، محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، المحقق: رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م.
- ابن العربي، محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، (د.ت).
- ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٥م.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي، تفسير القرآن العظيم، سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
- أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
- أبو زهرة، محمد بن أحمد، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، بيروت، (د.ت).
- أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
- الأصبهاني، محمد بن عبد الله، درة التنزيل وغرة التأويل، تحقيق: محمد مصطفى، معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.
- الألوسي، محمود بن عبد الله، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـ.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.
- البغدادي، أحمد بن موسى، السبعة في القراءات، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ١٤٠٠هـ.

- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر، أصول الدين، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٣٣هـ -٢٠٠٢م.
- البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م.
- الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق أحمد شاكر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- الثعلبي، أحمد بن إبراهيم الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أشرف على إخراجه: د. صلاح باعثمان، د. حسن الغزالي، أ. د. زيد مهارش، أ. د. أمين باشه، تحقيق: عدد من الباحثين، دار التفسير، جدة - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.
- الجصاص، أحمد بن علي الجصاص، أحكام القرآن، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.
- الرازي، محمد بن عمر التميمي، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠ م.
- الزركشي، محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ.
- السجستاني، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط - محَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المحقق: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.
- السمرقندي، نصر بن محمد، بحر العلوم، تحقيق: محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.
- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦م.
- الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٤ هـ.
- الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، تفسير القرآن، تحقيق د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٠هـ.
- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- علماء نجد الأعلام، الدرر السنية في الأجوبة النجدية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد، ط٦، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
- القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد، محاسن التأويل، المحقق: محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨ هـ.
- القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.
- القصاب، أحمد محمد بن علي، النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام، تحقيق: علي التويجري، دار ابن عفان، ط١، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.
- الماوردي، علي بن محمد، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (د.ت).
- محمد رشيد رضا، تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٠م.
- محمد عضيمة، دراسات في أسلوب القرآن، دار الحديث، القاهرة، (د.ت).

- المراغي، أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، (د.ت).
- النسفي، عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: يوسف بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.
- الواحدي، علي بن أحمد، أسباب نزول القرآن، تحقيق: عصام الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ط٢، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

The Sources:

- Ibn Abi Hatim Abdul Rahman Ibn Muhammad Al-Razi, Edited by: Asaad Al-Tayeb, Nazar Mustafa Al-Baz Library, Kingdom of Saudi Arabia, 3rd edition, 1419 Hijri.
- Ibn Taymiyyah Ahmed Ibn Abdul Halim, The Correct Answer for Those Who Changed the Religion of Christ, Edited by: Ali Hassan Nasser and others, Dar Al-Asima, Riyadh, 1st edition, 1414 Hijri.
- Ibn Taymiyyah, Ahmed Ibn Abdul Halim, The Stern Rebuke to the Insulter of the Prophet, Edited by: Muhammad Muhyiddin, Saudi National Guard, Kingdom of Saudi Arabia, (n.d.).
- Ibn Taymiyyah, Ahmed Ibn Abdul Halim, Majmu› Al-Fatawa, Researched by: Abdul Rahman Ibn Muhammad, King Fahd Complex for the Printing of the Holy Quran, Al-Madinah Al-Munawwarah, Kingdom of Saudi Arabia, 1416 Hijri - 1995 AD.
- Ibn Taymiyyah Ahmed Ibn Abdul Halim, The Prophecies, Edited by: Abdul Aziz Al-Tuwayyan, Adwa Al-Salaf, Riyadh, 1st edition, 1420 Hijri - 2000 AD.
- Ibn Al-Jazari Muhammad Ibn Muhammad, Publication in the Ten Readings, Researched by: Ali Muhammad Al-Dibaa, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, (n.d.).
- Ibn Hibban Muhammad Al-Busti, Sahih Ibn Hibban in the Order of Ibn Balban, Researched by: Shuayb Al-Arna›ut, Al-Risalah Foundation, Beirut, 2nd edition, 1414 Hijri - 1993 AD.
- Ibn Hazm Ali Ibn Ahmed, Kitab Al-Durrah Fi Ma Yajib Aqadah, Researched by: Ahmed Ibn Nasser, Heritage Library, Makkah, 1988 AD.
- Ibn Hazm, Ali Ibn Ahmed Al-Andalusi, Levels of Consensus in Worship, Transactions, and Beliefs, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, (n.d.).
- Ibn Hanbal, Ahmed Ibn Muhammad, Musnad Ahmed Ibn Hanbal, Researched by: Sayyid Abu Al-Ma›ati Al-Nuri, Alam Al-Kutub, Beirut, 1st edition, 1419 Hijri - 1998 AD.
- Ibn Duraid, Muhammad Ibn Al-Hasan, Jumhurah Al-Lughah, Researched by: Ramzi Baalbaki, Dar Al-Ilm Lil-Malayin, Beirut, 1st edition, 1987 AD.
- Ibn Ashur Muhammad Al-Tahir Ibn Muhammad, Al-Tahrir Wa Al-Tanwir, Dar Sahnoon for Publishing and Distribution, Tunisia, 1997 AD.
- Ibn Arabi, Muhammad bin Abdullah, Ahkam al-Quran, edited by Muhammad Abdul Qadir Ata, Dar al-Fikr for Printing and Publishing, Lebanon, (n.d.).

- Ibn Atiyya, Abdul Haq bin Ghaleb al-Andalusi, Al-Muharrar Al-Wajeez Fi Tafsir Al-Kitab Al-Azeez, edited by Abdul Salam Abdul Shafi, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Beirut, 1st edition, 1422 AH.
- Ibn Faris, Ahmad bin Faris bin Zakariya, Mu›jam Maqayis al-Lughah, edited by Abdul Salam Haroun, Dar al-Fikr for Printing and Publishing, Beirut, 1975 AD.
- Ibn Kathir, Ismail bin Umar al-Qurashi, Tafsir al-Quran al-Azeem, Sami bin Muhammad Salama, Dar Tayyiba for Publishing and Distribution, 2nd edition, 1420 AH - 1999 AD.
- Abu Hayyan, Muhammad bin Yusuf al-Andalusi, Al-Bahr al-Muhit, edited by Sheikh Adel Ahmed Abdul Mawjood and others, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Beirut, Lebanon, 1st edition, 1422 AH - 2001 AD.
- Abu Zahra, Muhammad bin Ahmad, Zahra al-Tafasir, Dar al-Fikr al-Arabi, Beirut, (n.d.).
- Abu al-Saud al-Imadi, Muhammad bin Muhammad, Irshad al-Aql al-Saleem Ila Maza›ih al-Kitab al-Karim, Dar Ihya al-Turath al-Arabi, Beirut, (n.d.).
- Al-Isbahani, Muhammad bin Abdullah, Durat al-Tanzil wa Ghurrat al-Ta›wil, edited by Muhammad Mustafa, Institute of Scientific Research, Mecca, 1st edition, 1422 AH - 2001 AD.
- Al-Alousi, Mahmoud bin Abdullah, Ruuh al-Ma›ani Fi Tafsir al-Quran al-Azeem wa al-Sab› al-Mathani, edited by Ali Abdul Bari, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Beirut, 1415 AH.
- Al-Bukhari, Muhammad bin Ismail, Al-Jami› al-Musnad al-Sahih al-Mukhtasar min Umur Rasool Allah Sallallahu Alaihi wa Sallam wa Sunanihi wa Ayyamih, edited by Muhammad Zuhair bin Nasser al-Nasser, Dar Touq al-Najah, 1st edition, 1422 AH.
- Al-Baghdadi, Ahmed bin Musa, Al-Sab›ah Fi al-Qira›at, edited by Shouqi Dhaif, Dar al-Ma›arif, Egypt, 1400 AH.
- Al-Baghdadi, Abdul Qahir bin Taher, Usul al-Din, edited by Ahmed Shams al-Din, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Beirut, 1433 AH - 2002 AD.
- Al-Baqai, Ibrahim ibn Umar, Nazm al-Durar fi Tanasub al-Ayat wa al-Suwar, edited by Abdul Razzaq al-Mahdi, Dar al-Kutub al-Ilmiyah, Beirut, 1415 AH - 1995 AD.
- Al-Tirmidhi, Muhammad ibn Isa, Sunan al-Tirmidhi, edited by Ahmed Shakir, Maktabat Mustafa al-Babi al-Halabi, Egypt, 2nd edition, 1395 AH - 1975 AD.

- Al-Tha›labi, Ahmad ibn Ibrahim, Al-Kashf wa al-Bayan ‹an Tafsir al-Qur›an, supervised by Dr. Salah Baa›thman, Dr. Hassan al-Ghazali, Dr. Zaid Mahirsh, Dr. Amin Basheh, edited by several researchers, Dar al-Tafsir, Jeddah, Saudi Arabia, 1st edition, 1436 AH - 2015 AD.
- Al-Jassas, Ahmad ibn Ali Al-Jassas, Ahkam al-Qur›an, edited by Muhammad al-Sadiq Qamhawi, Dar Ihya al-Turath al-Arabi, Beirut, 1405 AH.
- Al-Hamawi, Yaqut ibn Abdullah, Mu›jam al-Buldan, Dar Sader, Beirut, 2nd edition, 1995 AD.
- Al-Razi, Muhammad ibn Umar al-Tamimi, Mafatih al-Ghayb, Dar al-Kutub al-Ilmiyah, Beirut, 1st edition, 1421 AH - 2000 AD.
- Al-Zarkashi, Muhammad ibn Bahadir, Al-Burhan fi Ulum al-Qur›an, edited by Muhammad Abu al-Fadl, Dar al-Ma›arifah, Beirut, 1391 AH.
- Al-Sajistani, Sulaiman ibn al-Ash›ath, Sunan Abi Dawood, edited by Shuayb al-Arnawt and Muhammad Kamil Qarah Bally, Dar al-Risalah al-Alamiyah, 1st edition, 1430 AH - 2009 AD.
- Al-Saadi, Abdul Rahman ibn Nasser, Taysir al-Karim al-Rahman fi Tafsir Kalam al-Mannan, edited by Abdul Rahman al-Luwaieh, Al-Resalah Foundation, Riyadh, 1st edition, 1420 AH - 2000 AD.
- Al-Samarqandi, Nasir ibn Muhammad, Bahr al-Ulum, edited by Mahmoud Matarji, Dar al-Fikr, Beirut, (n.d.).
- Al-Suyuti, Abdul Rahman ibn Abi Bakr, Al-Itqan fi Ulum al-Qur›an, edited by Muhammad Abu al-Fadl, General Egyptian Book Authority, 1394 AH - 1974 AD.
- Al-Suyuti, Abdul Rahman ibn Abi Bakr, Al-Durr al-Manthur, Dar al-Fikr, Beirut, (n.d.).
- Al-Shanqeeti, Muhammad Al-Amin bin Muhammad Al-Mukhtar, «Adwa› Al-Bayan fi I›adah Al-Qur›an bil-Qur›an», Dar Al-Fikr for Printing and Publishing, Beirut - Lebanon, 1415 AH - 1995 AD.
- Al-Shanqeeti, Muhammad Al-Amin bin Muhammad Al-Mukhtar, «Daf› Ihram Al-Idtirab ‹an Ayat Al-Kitab», Ibn Taymiyya Library, Cairo, 1st edition, 1417 AH - 1996 AD.
- Al-Shawkani, Muhammad bin Ali, «Fath Al-Qadeer Al-Jami› Bayn Fanni Al-Riwayah wal-Dirayah min ‹Ilm Al-Tafsir», Dar Ibn Kathir, Damascus, 1st edition, 1414 AH.

- Al-San›ani, Abdul Razzaq bin Hammam, «Tafsir Al-Qur›an», edited by Dr. Mustafa Muslim Muhammad, Al-Rushd Library, Riyadh, 1410 AH.
- Al-Tabari, Muhammad bin Jarir, «Jami› Al-Bayan fi Ta›wil Al-Qur›an», edited by Ahmed Shakir, Al-Risalah Foundation, Beirut, 1st edition, 1420 AH - 2000 AD.
- Scholars of Najd, «Al-Durar Al-Sunniyah fi Al-Ajwibah Al-Najdiyah», edited by Abdul Rahman bin Muhammad, 6th edition, 1417 AH - 1996 AD.
- Al-Qasimi, Muhammad Jamal al-Din ibn Muhammad Sa›id, Mahasin al-Ta›wil, edited by Muhammad Basal, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Beirut, 1st edition, 1418 H.
- Al-Qurtubi, Muhammad ibn Ahmad, Al-Jami› li Ahkam al-Qur›an, edited by Hisham Samir al-Bukhari, Dar Alam al-Kutub, Riyadh, Saudi Arabia, 1423 H - 2003 AD.
- Al-Qasab, Ahmad Muhammad ibn Ali, Al-Nukat al-Dalat ‹ala al-Bayan fi Anwa› al-›Ulum wa al-Ahkam, edited by Ali al-Tuwaijri, Dar Ibn ‹Afan, 1st edition, 1424 H - 2003 AD.
- Al-Mawardi, Ali ibn Muhammad, Al-Nukat wa al-›Uyun, edited by Al-Sayyid ibn ‹Abd al-Muqsud, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Beirut, Lebanon (n.d.).
- Muhammad Rashid Rida, Tafsir al-Manar, Egyptian General Book Organization, Egypt, 1990.
- Muhammad Adhima, Studies in the Style of the Qur›an, Dar al-Hadith, Cairo (n.d.).
- Al-Maraghi, Ahmed Mustafa al-Maraghi, Tafsir al-Maraghi, Mustafa al-Babi al-Halabi and Sons Library and Printing Company, Egypt (n.d.).
- An-Nasafi, Abdullah bin Ahmad, «Madarik al-Tanzil wa Haqaiq al-Ta›wil», Edited by: Yusuf Badiwi, Dar al-Kalam al-Tayyib, Beirut, 1st Edition, 1419 AH - 1998 AD.
- Al-Wahidi, Ali bin Ahmad, «Asbab Nuzul al-Quran», Edited by: Issam al-Humaidan, Dar al-Islaah, Dammam, 2nd Edition, 1412 AH - 1992 AD.
- Al-Nisaburi, Muslim bin al-Hajjaj, «Al-Musnad al-Sahih al-Mukhtasar bi-Naql al-Adl ‹an al-Adl ila Rasul Allah SAW», Edited by: Muhammad Fuad Abdul Baqi, Dar Ihya al-Turath al-Arabi, Beirut, (n.d.).